



بَلَاءُ الْعُلَمَاءِ

عشر قصص من سنة للفيض السوفالروعي لعماد الدين

تقريري

عبد العزيز ابن الجابري

الطبعة الثالثة

منقحة ومضاف اليها أربع قصص جديدة

١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م

مكتبة ابن الجابري

لاحتابجا اولاد محنت راهن ابن شامخي

بشاع عبد العزيز بمصر

ادارة وطبعة ومكتبة الثبات



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قارني العزيز

أتقدم اليك شاكرا مفتيحا بالطيعة الثالثة من كتابي بدائع
الخيال الذي يجمع بين دفتيه عشر قصص مختارة من مبتكرات
الفيلسوف الروسي العظيم « ليو تولستوي » عربتها من كتاب
بالإنجليزية عنوانه: Twenty Three Tales From Tolstoy
أما الشكر فلاقبال والتمتعيد اللذين لقيهما الكتاب منذ
اصدار طبعته الاولى في أواخر عام ١٩١٩ طبعته الثانية في
أوائل عام ١٩٢٢ .

أما الاغتباط فلرواج الكتاب في زمن كثر فيه نهافت القراء
على الغث من القصص الموضوعية أو المعربة ، وفي زمن عمت فيه
الشكوى من الفوضى السائدة في سوق الطباعة والنشر في مصر .
وهذا الشمور يشاركني فيه أهل الغيرة من الراغبين في الاصلاح .
لقد تقدم الفن القصصي بين الأمم الغربية في يومنا هذا
وأصبح من أعظم الوسائل التي يعتمد عليها رجال التفكير
والاصلاح في بث آرائهم وأفكارهم وبخلاصة أبحاثهم ونظراتهم

في شئون الحياة . ولقد خرجت القصص بهذا التطور الجديد
عن دائرة النقص الذي وضعت من أجله أي التسلية .
ولكن لمن الفضل في هذا التطور : الفضل بلا ريب عائد
عن الساري ذاته الذي أصبح لا يعيل إلى قراءة الروايات التي
تصور له الوقائع الدموية والشبهات العنيفة بهذا الخصوص ورجال
الشرطة التي تدور عليهم محور القصة . أو التي تصور لهم مناسبات
العدال : محادثات الرقباء الحبيبين تجعلهما القصص الشخصية
التي ينبغي عليهم الحديث .

هذا النوع من القصص قد قضى عليه في أوروبا وجرعه
تبار النوع الجديد الذي يجمع بين التسلية والافادة ، النوع الجديد
الذي يرمي إلى بث الآراء الاصلاحية والتفكير والملاحظات
الاجتماعية في الثوب القصصية .

قد يقول قائل : ان العرق بيننا وبينهم مازال واسما وأن
ناصري الالتمب يحارون في تلك البلاد عقلية آخذة في مدارج
الكمال ، عقلية تستطيع أن تتذوق هذا النوع الجديد وأن تفهم
مافيه من فكر ومغزي . ولكنني أقول أن هذه حجة واهية لأن
القاريء في بلادنا اذا كان يقرأ القصة مجرد التسلية فانه يجد بنيتها
في النوع القصصية الجديد أيضا ، لاسيما اذا كانت القصة مكتوبة

بلغة سهلة . فاللوم اذن يقع على الناشر من الذين أحدثوا في أسواق المطابع تلك الفوضى التي يشكو الجميع منها . ولكن لا تنس أي قارئ العزيز أن عليك نصيبا من هذا اللوم لأن الناشر والمحرر والوُلف والمطابع كل هؤلاء إنما ياتمرون بأمرك ويتمشون مع رغبتك فإن أردت أن ترغمهم على تقديم النافع الصالح وعرض الحديد الثمين من مبهتمكرات القوم فأعرض عما يقدمونه لك من القصص النافعة والروايات الفعنة أمثال (وقائم كارتر) (والحلقات البواليسية) (ومجموعات جونسون) وذو طها . . . ودرر كامبول وأم ووكامبول وابن وركامبول . . . وما إلى ذلك من القصص التي أعيا أعظم من نفعها .

عاهدني أن تفعل ذلك منذ اليوم وأن تنشر الفسكرة بين اخواتك وبنى عشيرتك فلا تلبث أن ترى ثمرات هذا العهد بعد زمن قصير

لقد أطلت عليك الحديث وخرجت بك عن موضوع المقدمة دون أن أحدثك عن محتويات الكتاب ومزاياه كما هي العادة في المقدمات ولكن مالي والتعرض لهذا الأمر ! فالكتاب بين يديك - وقد نقدت ثمنه بلا ريب - فقرأه وانقده ووازن بين مادفته من ثمن وبين ما استفدته من مطالعته ، فإذا وجدت



نفسك وإيها فاطلب من المولى أن يعينني في السبيل في هذا
السبيل . أما إن كنت تجده تافها لا يستحق ما بذاته أنا من
وقت في التعريف وما صرفته أنت من وقت في القراءة فماملني
أذذاك بحميل صديقتك واعلم أن لي من حسن النية خير شفييع
والسلام

عبد العزيز أمين الخالجي

شارع النهضة ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٢٦

ترجمة حياة مؤلف الكتاب

تمهيد - قد يتوالى كر الجديدين وتمر الايام والاعوام مر السحاب طامسة باقدامها رسوم الاجيال الماضية والناس على ما هم عليه من فطرتهم الاصلية مستسلمون لما ورثوه عن آباؤهم من التقاليد والعادات مذمومة كانت أم مرضية ، فاسدة أم صحيحة ، ويظلون كذلك لا يفقهون معنى لما يرونه من المراثيات ولا يحركون ساكنا لما يمر عليهم من صنوف العظات ، الى ان يمن الله عليهم بمن يعيط اللثام عن سر ماجهلوهم ويكشف لهم الستار عن كنهه مالم يتحققوه ، فيندبهم من رقدتهم ويرشدهم الى ما كانوا عنه غافلين اولئك هم أقطاب العلم ورسل التهذيب ومهبط المدنية ونور العرفان ، بهم تهتدى الامم وعلى يدهم يتم صلاح الجماعات ونظام الشعوب ، غير ان الدهر وهو بخيل بامثال هؤلاء الاقطاب لا يكاد يجود بفرد منهم على رأس كل جيل حتى تنصب عليه سهام اللعنات من كل صوب وتلقاه الناس بالعداوة والبغضاء ، والسبب واضح جلي فالناس اذا استسلمت مدة من الزمان الى بعض العادات الفاسدة وتوارثت طوال الاجيال العاهات والامراض النفسية بعضها عن بعض ، تصبح بينهم من الصفات اللازمة ولا ينظرون

اليها اذ ذاك كماهات وأمراض بل يعتبرونها كخلال طبيعية أنزلها
الله على آدم ، فاذا ظهر بينهم من هو خال منها غير متحل بما ظنوه
ناقصا ناصبوه العداء ونابدوه الالاقاب

نظرة الى كل من اشتهر بفضل أو عرف بشيء من النبيل نعلم
مقدار ما عانى من الدهر وقاسى من مناوأة الناس في سبيل الحق .
فهذه أئمة المسلمين وهداتهم مثل مالك والشافعي وفلاسفة هذه
الامة ودعاة الصلاح فيها كالمعري وابن رشد وابن تيمية ومن
تقدمهم وجاء بعدهم من فلاسفة اليونان والرومان والفرس وغيرهم
من علماء المعقول والمنقول ممن لا تزال أشخاصهم ماثلة في أذهاننا
ولا تزال نستضيء بنبراسهم قد نغص الدهر عليهم عيشهم وضيق
عليهم مذاهبهم لشذوذهم عن المألوف وخروجهم عن المعروف ولم
يرجعهم ما هم فيه عن سبيل رأوه هو سبيل الحق بل مازالوا في
عراك و كفاح حتى لقوا ربهم فرحين بما قضوا من واجب الارشاد
عليهم غير مكترئين بما لقوا في سبيل الواجب

والكونت تولستوى الذي أقدم الي القراء ترجمة حياته
(مقتضبة من دائرة المعارف البريطانية ومجلة الهلال القراء وبعض
المجلات التركية) هو أحد أولئك الافراد القلائل الذين لا يكاد
الدهر يجود بواحد منهم حتي يتفانى الناس في تمجيد خصاله ويفرقون

في اجلال ذكره وا كبار شأنه إذ يعمل الفرد منهم على اسعاد نوع
الانسان وترقية حال بنى البشر اكثر مما يعمله المئات بل الالوف
من معاصريه

ولم أر أمثال الرجال تفاوتا الى الفضل حتى عد الف بواحد

* * *

نشأته الاولى - تشغل حياة تولستوى ثلاثة أرباع القرن
التاسع عشر وعشر سنين من فجر القرن العشرين اذ كان ميلاده
في الثامن والعشرين من شهر أغسطس عام ١٨٢٨ في قرية (ياسنايا
بوليانا) في ولاية طولا من أعمال روسيا . فأنت ترى أن شمس
حياته بزغت في فجر القرن التاسع عشر وعاش معاصراً لكثير
من فحول العلماء والفلاسفة مثل هيجو وغوته وغيرهما من الذين
ولدوا معه في فجر القرن وغربت شمس حياتهم في أصيله

وأسرته المانية الاصل هاجرت في عهد بطرس الاكبر واشتهر
منها بطرس تولستوى الذى كان سفيرا لروسيا لدى الدولة العمانية
وأدخل في مصاف الاشراف عام ١٧٢٤ وكان لهذة الاسرة منزلة
رفيعة بين الاسر الروسية اذ اشتهر كثير من أبنائها بالسياسة ونبغ
اخرى منهم في فن الكتابة .

أما أمه فكانت من بيت مجد عريق في الحسب وشرف الاصل

يعرف بأسرة فولكون وكانت القرية التي ولد فيها الفيلسوف ملكا لها فأقامته فيها ليقضى أيام طفولته ولكن وافاها القدر المحتوم وهو في ابان نشأته فعهد بتربيته الى سيدة من ذوات قرابته وانتقل به والده اذ ذاك الى مدينة موسكو حيث عاجلته المنية قبل أن يبلغ الكونت العاشرة من عمره فعهد بتربيته الى سيدة أخرى من ذوات قرابته تدعى بوشكوفافعادت به الى قرية ياسنايا مقر ولادته وهناك تلقى دراسته الاولية .

تعليمه - وما كاد يبلغ الخامسة عشر حتى انتقل الى مدينة قازان وانتظم في سلك جامعتها مدة عامين توفر أثناءها على دراسة بعض العلوم العالية وفيها درس أيضا بعض اللغات الشرقية غير أنه ما لبث أن عافت نفسه الجامعة ودروسها لنفوره من اخلاق تلامذتها فعاد الى قرية ثانية وأكب هناك على مطالعة كتب مشاهير المؤلفين والادباء من الروسيين والفرنسيين والالمان أمثال روسو وهييجو وفولتير وديكنز وبوشكن وترجنيف وشيللر وغوطة ولكنه كان أكثر تعلقا بمؤلفات روسو، فماش عيشة مستقلة لا يحتاج فيها الى مرشد ولا مؤدب الا الدهر وحوادث الايام وتبعاته الشخصية .

أوائل شبابه - وقد أخذت الاعتبارات الفلسفية تشغل

أفكاره في أوائل شبابه فكان شغله الشاغل أيام صباه هو التفكير في (ماهو الانسان ؟) و (من أين أتى ؟) و (الى أين مصيره ؟) و (ماهي السعادة ؟) الى غير ذلك من المسائل الفلسفية العويصة التي كانت ترد مخيلته تباعا آخذة بعضها برقاب بعض حتي نشأ عنده ميل خاص للمباحثات والمناظرات فكان يقضي طوال الساعات والايام في مجادلة أقرانه ومناقشتهم فيما يعرض له من الافكار .
انتظامه في سلك الجندية - وبينما كان الفيلسوف الشاب على الحال التي وصفناها لك حائرا بين تأثيرات الطبيعة وموحيات الكتب والاسفار اذ زاره شقيق له أكبر منه سنا في قرية (ياسنايا) وكان شقيقه هذا من ضباط الجند الروسي ببلاد القوقاز ، فوصف له حالة الجند وماهم عليه من نضارة العيش ورفاهة الحال وما زال به يحسن له حالته ويرغبه الانتظام بسلكهم حتى رضي وأطاع شقيقه فاصبح في عداد الضباط وهو في الثالثة والعشرين من عمره وعند نشوب حرب القسرم انتقل الى الطونة وانضم الى أركان حرب البرنس غورتشاكوف ثم انتقل الى سباستبول حيث عين قائدا لفرقة من المدفعية . وكان لانتقاله من بيئة لاخرى أثر كبير في اثاره قريحته وتوسيع خياله فتغيرت أطواره ونحوات كليته وتبطنت أعماق نفسه بانفعالات كثيرة ظهر على أثرها أهم مؤلفاته التي يصف

بها آلة الجند وأهوال الحروب وما يكابده الانسان من فظائمه
رحلته وزواجه - وفي العقد الرابع من سني حياته تطلع الى
السفر فسافر سنة ١٨٦٢ وساح في بعض أنحاء أوربا ثم رجع الى
قريته واقترن في العام الثاني بالسيدة صوفيا ابنة الدكتور بيرس
الالماني الذي كان يقيم في موسكو فاضطر تولستوى أن يداول
السكنى بينها وبين قريته وكانت قد نضجت مواهبه واتسعت
معلوماته لكثرة ماشاهده واختبره بنفسه وكانت الحكومة قد عينته
قاضيا في قريته فبدأ بنشر تعاليمه وأخذ يدعو الناس الى السلام
والفضيلة سواء بالقوة أو بالتعليم

عيشته اليومية - وقد اشتهر بزهده في الحياة وتخليه عن
مظاهر الوجاهة فكان في قريته مع زوجته وأولاده في منزل
بسيط محاط بغابة كثيفة ليس فيه من الاثاث الا الضروري فكان
يقوم مبكرا فيلبس ثوبا بسيطا مثل أثواب الفلاحين وهو عبارة
عن سراويل واسعة فوقها كساء كالقميص يتمنطق حوله بسير
من الجلد .

وكان يتناول طعام الافطار ثم يذهب الى العمل في حرت
الارض وتمهد أشجارها وبذر الحبوب ومساعدة ضعفاء الفلاحين
في أعمالهم .

سيرته بين فلاحيه - كانوا يعجبون بتواضعه ويستأنسون بدعته ولطف شمائله فاذا وقع بينهم خلاف تفاضوا اليه وارتضوا حكمه وكان قد أنشأ في قريته مدرسة ينفق عليها من ماله الخاص لتعليم أبناء الفلاحين وكان يتولي تعليمهم بنفسه ، فاشتهرت المدرسة وقصدها أهل المدائن الاخرى المجاورة يلتمسون الاستفادة من آرائه وفلسفته وأنشأ لهم أيضا مجلة تهديدية تصدر باسم القرية وقد بلغ من محبته لفلاحى قريته انه أراد أن ينبذ فكرة الاستئثار بالملك الشخصى وأحب أن يوزع أملاكه بينهم بالتساوى فيشتغل كواحد منهم ولكن زوجته وذوى قرابته أبوا عليه ذلك تلك كانت حاله بالصيف أما فى الشتاء فكان يقيم فى موسكو فينقطع عن الاعمال البدنية ويتفرغ للتأليف والتحرير فيؤلف ويراسل ويكتب

حياته العلمية - لا نكاد نذكر اسم تولستوى حتى يخطر على البال مؤلفاته العديدة ورسائله المتنوعة وأشهرها (الحرب والسلام) و (البعث) و (حناكرانينا) و (القيامة) و (أين المخرج) و (الحب والزواج) و (بم يعيش الناس) و (ديانة المسيح) و (الحياة) و (مملكة الظلام) غير أننا لا نكون مبالغين إذا قلنا أن لرواياته الثلاث الاولى وهى (الحرب والسلام) و (البعث) و (حناكرانينا) القدح المعلى والمكانة السامية فى عالم الادب والتأليف لا فى روسيا

فقط بل في جميع العالم الاوروبي . ولا مرأ في أن هذه الروايات
الثلاث هي الدرة اليتيمة وواسطه القلادة بين درر مؤلفاته وغوالي
حكمه فان رواية (حنا كراينا) تمتاز بدقة البحث في تصوير ما يحصل
عادة في عالم الزواج من الآلام والاضطرابات التي منشؤها عدم
التروى والمضى مع الالهواء النفسية وفي روايته (البعث بعد الموت)
وصف الامراض الاجتماعية وصورها بكل ألوانها ومعانيها مع ذكر
كيف أن الناس في هذا العصر أصبحوا يتنشقون سموم الظلم
والاستبداد ويتجرعون كؤسا ملؤها الكذب والرياء بدل استنشاقهم
الهواء وشربهم الماء . وفي هذه الرواية يقول الناقد الفرنسي المعروف
جول لومتر : « كتب تولستوى روايته (الحرب والسلام) و (حنا كراينا)
ثم خجل من الشهرة وبعد الصيت اللذين نالهما أثر ظهورها فاحتجب
في كسر داره واختفى بين صحائف الانجيل مدة خمسة عشر عاما
ثم ظهر في عالم الادب ثانية وفي يده أعجوبة مؤلفاته » كتاب البعث
بعد الموت «

ولو أمعنا النظر في حياة تولستوى المعنوية نرى أنها بكل
ألوانها ومظاهرها سياسية كانت أم اجتماعية ، دينية أم خلقية ، عبارة
عن سلسلة حروب شعواء كان يشنها ذلك الرجل العظيم ضد الظلم
والاستبداد ومفاسد المدينة الحاضرة وردائلها فكان يرى رأى

روسو القائل بان صلاح الناس أو فسادهم إنما يدخل عليهم من باب المعاشرة والمخالطة ويسلك اليهم من طريق البيئة والجوار ثم نظر الى المدينة الحاضرة المشمعة بالانوار الكاذبة وفطن الى ماتحت تلك الاضواء من ظلمة المفاسد والذائل وعلم ان التبعة في فساد نظام الاجتماع واقع على الرئاسات الدينية والسياسية فوقف حياته على ايقاظ اخوانه في الانسانية وقضى معظم حياته يدعو الناس الى دينه الجديد (Religion de la bonté) وأساسه ايجاد رابطة المحبة والشفقة بين الناس وعدم مقابلة الشر بمثله ولذا نرى أن روح هذا المبدأ تتجلى في أغلب كتبه وتعاليمه التي تكاد تنطق بلسان واحد هاتين الكلمتين وهما :

(١) أحبوا بعضكم بعضا

(٢) لا تقابلوا الشر بمثله

مقارنة بينه وبين أبي العلاء - ذهب بعض كتاب أوروبا الى وجود الشبه بين توالستوى وبين روسو وعزز رأيه بأدلة لا محصل لذكرها في هذه المقدمة الوجيزة وانا نرى أنه من الظلم أن نختتم مقدمتنا دون أن نذكر ما رأينا من وجوه الشبه بين حياة صاحب الترجمة وحياة أبي العلاء المعري المولود سنة ٩٧٣م . فكلما الرجلين عاش زاهدا في الحياة وكلاهما ناله من اضطهاد رجال الدين

مانعص عليه عيشه وضيق دونه المذاهب ولكلاهما آراء في الحياة
ونظرات في الاجتماع تتفق معني ومبنى
اشتهر تولستوى بزهده في الحياة وتخليه عن مظاهر الوجاهة
على نحو مامر بك في مقدمتنا هذه ، كذلك كان أبو العلاء زاهدا
في الحياة متخليا عن ملذاتها يردد قوله :

أُتِنِي مِنَ الْإَيَّامِ سِتُونَ حِجَّةً وَمَا أُمْسَكْتَ كِفَايَ ثَنِي عِنَانِ
وَلَا كَانَ لِي دَارٌ وَلَا رُبْعٌ مَنْزِلٍ وَمَا نَسِيْتُ مِنْ ذَاكَ رُوعَ جَنَانِ
تَذَكَّرْتُ أَنِّي هَالِكٌ وَأَبْنُ هَالِكٍ فَهَانَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ وَالثِقْلَانِ
الا إنيهما وان زهدا في كل لذات الحياة فقد رغبا في العلم
والتأليف اللذين قد ملكهما واستأثرا بهما ولا شك ان ذلك كلفهما
معاشرة الناس ومجاملتهم الى حد معلوم فان أبا العلاء كان مضطرا
الى عشرة الناس لا احتياجه الي من يقرأ له ويكتب عنه ولذلك لم
يكديستقر في المعرة حتى اشتغل بالتعليم فالتف -وله الطلاب من
جميع الاطراف . كذلك كان تولستوى مضطرا لمجاملة زواره
العديدين الذين كانوا يقصدونه من أقاصى البلاد يلتمسون الاستفادة
من فلسفته وآرائه .

وصف الرحالة ناصرى خسرو أبا العلاء المعري بقوله
هو يحكمها (أى المعرة) رجل ضريير يعرف بأبي العلاء عظيم الثروة

ملك عددا ضخما من العبيد وكان سكان المدينة كافة خدمه أما هو فيحيا حياة خشنة يلبس غليظ الصوف ولا يغادر بيته ولا يأكل الا الشعير وسمعت الناس يتحدثون بأن بابه لا يفتح وأن نوابه يعملون في تدير المدينة ولا يلجأون اليه الا في مهام الامور الخ « ولو صح هذا الوصف وهو ما أثبت احتمال العلامة طه حسين في كتاب (ذكرى أبي العلاء) صحيفة ٢٣٠ بقوله : « فمن الظلم للتاريخ أن نمر بهذا الخبر من غير أن تثبت هذا الاحتمال » لكان مشابها للمعيشة التي كان يعيشها الفيلسوف تولستوى في قريته بين فلاحيه ومريديه (١)

(١) لم نجد في كل التواريخ التي ترجمت تاريخ حياة أبي العلاء ما يحقق قول الرحالة أو يثبت احتمال الاستاذ طه حسين فقد أجمع الكل على أنه كان فقيرا لا يملك من عرض الدنيا غير القليل التافه وقد رفض هبات الملوك واعطيات الأمراء وعاش قانعا باليسير إذ كان له وقف يحصل منه في العام على ثلاثين دينارا قدر منها لمن يخدمه النصف الا انما مع ذلك لا تنكر ما كان لاسرته التنوخية من الوجاهة وما كان لابي العلاء نفسه من المكانة في نفوس أمراء عصره وقد ذكر الذهبي نقلا عن القفطي « ان صالح ابن مرداس صاحب حلب خرج الى المعرة وقد عصى عليه أهلها فنازلها وشرع في حصرها وربماها بالمجانيق فلما أحس أهلها بالغلب سعوا الى أبي العلاء بن سليمان وسألوه أن يخرج ويشفع فيهم فخرج ومعه قائد يقوده فأكرمه صالح واحترمه ثم قال لك حاجة قال : الامير أطل الله بقاءه كالسيف القاطع لان مسه وخشن حده وكالنهارة المبالغ (?) قاط وسطه وطاب برده خذ العفو ومر بالعرف واعرض عن الجاهلين . فقال له صالح قد وهبتها لك «

كان تولستوى يرى أن نظام الاجتماع فاسد يحتاج الي
اصلاح وأن فساده ناجم عن الرثاسات الدينية والسياسية كذلك
كان يرى أبو العلاء وصرح بهذا الرأي غير مرة في اللزوميات
وسقط الزند فمن ذلك قوله :

ساس الانام شياطين مسلطة

في كل مصر من الوالين شيطان

و كذلك قوله :

مل المقام فيكم أعاشر أمة

أمرت بغير صلاحها امرؤها

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها

فعدوا مصالحها وهم أجراؤها

رأي تولستوى في المرأة قبيح لأنه يسيء الظن بها في كل
أطوارها ويرى أن تقطع كل علاقة بينها وبين الحياة العامة فمن ذلك
قوله : «على الرجل أن يراقب سلوك امرأته ولا يطلق لها العنان
بل يحجبها في البيت والبيت دائرة حرية واسعة للمرأة ، وقال في
موضع آخر في الزواج (ان الزواج أصبح في عصرنا هذا بيننا محض
خداع وغش ولكنه لا يزال يوجد عند أولئك الذين يرون فيه
سرا من أسرار الدين كالمسلمين والصينيين والهنود أما نحن فلا نرى

فيه غير تلك المقارنة الحيوانية ه
ولأبي العلاء رأى في المرأة كثير المطابقة لرأى توأستوي فهو
كثير الظن بها ويرى أن تعيش بمعزل عن الحياة العامة وتشدد في
طلب الحجاب كما أشار في قوله :

علموهن النسج والغزل والرد
ن وخلصوا كتابة وقراءه
وكذلك قوله :

فحمل مغازل النسوان أولى
بهن من اليراع مقلات
ومنه قوله في التائبة :

ولا ترجع بإيماء سلاما
على بيض أشرن مسلمات
أولات الظلم جئن بشر ظلم
وقد واجهنا متظلمات
فوارس فتنة أعلام غي
لقينك بالاساور معدلات

ذكرنا انفا كيف أن تولستوى نبذ الاعتقاد القائل بالاستثمار
الشخصي وأراد أن يقسم أملاكه بين فلاحيه ويشغل كواحد منهم

فكانه بذلك يعزز رأى أبي العلاء القائل :

كيف لا يشرك المضيقيين في النعمة قوم عليهم النعماء
واقواله في هذا المعنى كثيرة يقف عليها القارىء في أكثر
(لروميته)

الى هنا تنتهى من المقارنة بين افكار بطلى القرن التاسع
والقرن العشرين بعد الميلاد، والى هذا الحد نكون قد أنجزنا
ما وعدنا به القارىء، من ترجمة حياة فيلسوف روسيا العظيم (الكونت
لاون تولستوى) الذى أفل نجم حياته في ٢٠ نوفمبر عام ١٩١٠
ليكون على بينة من تاريخ حياة أحد رجال العالم العظماء الذين أفادوا
النوع الانساني بأفكارهم الصالحة وسيرتهم المبرورة وسريرتهم الطاهرة

قصيدة أمير الشعراء احمد شوقي بك في رثاء الفيلسوف

(تولستوى) تجرى آية العلم دمعها

عليك ويبكى بائس وفقير

وشعب ضعيف الركن زال نصيره

وما كل يوم للمضعيف نصير

ويندب فلاحون أنت منارهم

وأنت سراج غيبوه منير



يعانون في الاكواخ ظلماً وظلمة
ولا يملكون البت وهو يسير
تطوف كعيسى بالحناز وبالرضا
عليهم وتغشى دورهم وتزور
ويأسي عليك الدين اذ لك لبه
وللخادميه الناقين قشور
أيكفر بالانجيل من تلك ككتبه
أناجيل منها منذر وبشير
تناول ناعيك البلاد كأنه
يراع في راحتك له صرير
وقيل تولى (الشيخ) في الارض هاتماً
وقيل بدير الراهبات أسير
وقيل قضي لم يعن عنه طبيبه
وللطب من بطش القضاء عذير
اذا أنت جاورت (المعري) في الثرى
وجاور (رضوى) في التراب ثبير
وأقبل جمع الخالدين عليكما
وغالى عمق مدار النظير نظير



جماجم تحت الارض عطرها شذى
خباهن مسك فوقها وعبير
بين يباهى بطن (حواء) واحتوى
عليهن بطن الارض وهو فخور
فقل يا حكيم الدهر حدث عن البلى
فأنت عليم بالامور خبير
أحطت من الموتى قديما وحادثا
بما لم يحصل منكرو نكير
طوانا الذي يطوى السماوات في غد
وينشر بعد الطى وهو قدير
تقادم عهدانا على الموت واستوى
طويل زمان في البلى وقصير
وهل عالج الاحياء بوسا وسقوة
وقل فساد بينهم وشور
قم انظروا أنت المالىء الارض حكمة
أاجدى نظيم أم أفاد نشير
أناس كما تدرى ودنيا بحالها
ودهر رخی تارة وعسير

وأحوال خلق غار متجدد
تشابه فيه أول واخير
تمر تباعا في الحياة كأنها
ملاعب لا ترخي لهن ستور
وحرص على الدنيا وميل مع الهوى
وغش وافك في الحياة وزور
وقام مقام الفرد في كل أمة
على الحكيم جمع يستبد غفير
وحور قول الناس مولى وعبيده
الى قولهم مستأجر وأجير
وأضحى نفوذ الناس لأمر في الورى
ولانهى الا ما يرى ويشير
تساس حكومات به وممالك
ويدعن اقبال له وصدور
وعصر بنوه في السلاح وحرصه
على السلم يجرى ذكرها ويدير
ومن عجب في ظلها وهو وارف
يصادف شعبا آمنا فيغير



ويأخذ من قوت الفقير وكسبه
ويؤوى جيوشا كالخصى ويمير
ولما استقل البر والبحر مذهبها
تعلق أسباب السماء يطير



الحكاية الاولى

بم يعيش الناس

كان سيمون صانع أحذية لا يملك من الارض قيد شبر، وكان يقطن كوخا لاحد الفلاحين ويعيش من كسب يده . لقد كان العمل إذذاك كاسدا وحر كته خامدة ، وزاد العطين بلة أن سبل العيش كانت مجهدة و نار الفلاء متأججة في كل حاجيات الحياة لذلك كان كل ما يقبضه سيمون ثمنا لعرق جبينه ينفقه في سبيل الحصول على قوت يتبلغان به هو وزوجه . لم يكن لذلك الشيخ وزوجه الاغطاء جلدى يتقاسمانه سويا ليدفع عنهما قر الشتاء ، ولقد استنهرت فتوق ذلك الغطاء فكان هذا هو العام الثانى الذى احتاجا فيه الى شراء غطاء آخر . لذلك خرج سيمون متوكئا على عصاه موليا وجهه شطر القرية حيث يمكنه أن يجمع من بعض القرويين ما هم مدينون به من النقود . فوفى له بعضهم وأمهله البعض ونقد أحدهم عشرين كوبكا (١) فلم يكن ذلك المبلغ كافيا لشراء الغطاء ولكنه كافيا لان يدفعه سيمون ثمنا لبعض كؤوس من الفوتكا (٢) : بمدئذ قفل

(١) الكوبك عمله روسية قيمتها ١/٣ من الروبيل الرومى أى أنها

تساوى مليا (٢) شراب روسى

راجعا الى منزله كسير القلب وأخذ يهذي في طريقه تارة عن غضب
زوجيه وسخطها عليه وآونة يخاطب القروي الذي أعطاه عشرين
(كوبكا) قائلا : «قف قليلا ! وانقذني كل ما أنت مدين به . انك اعطيتني
عشرين (كوبكا) فقط و ادعيت الفاقة ولكن ماذا يهمني وماذا عساي
أن أفعل بهذا المبلغ ، انك تملك دورا و ماشية و أما أنا فلا أملك الا ما
أسد به الروق . انك تملك الحقول الغنية بالحب و النمر و أما أنا فاشترى
كل حبة من قوت يومي . انك تسزيد من كل شيء و أما أنا فاحتاج الى
أقل شيء ، فانت مترف ذو نعمة و أنا شقي ذو متر به اذن يجب أن تدفع . هلم
لا تردد» و ما وصل من هديانه الى هذا الحد حتي كان قد انتهى
الى معبد مقام عند منعطف الطريق ، فنظر و اذا به يرى شبحا
أبيض يلوح وراء المعبد فلم يتبينه تماما لأن طلائع الليل أخذت
تطرد جيوش النهار من تلك البطاح و الوديان ثم أخذ يسائل نفسه :
«ماعسى أن يكون هذا الشبح ؟ انه حجر أبيض . ولكني لم أشاهد
هنا حجرا قبل الآن . ألا يكون نورا اذن ؟ ولكن لا . فان رأسه
تمائل رأس الانسان الا أنها ناصعة البياض و ماعسى أن يفعل
الانسان هناك . » ثم اقترب من الشبح قليلا قليلا حتى تجلمت
أمامه حقيقته و زال ما خامر فؤاده من الريب .
ماذا رأى ؟ رأى رجلا عارى الحسد جالسا بانحاء وراء المعبد

لا حراك به ، فتوجس سيمون من نفسه خيفة وهاله ذلك المنظر
وظن أن أحد القرويين ظفر به فقتله ثم تركه في تلك البقعة . فأوسع
خطاه وسار من أمام المعبد حتى لا يمر بالشبح ، ثم حانت منه التفاتة
الى انوراء فرأى الرجل يتبعه ، نظراته فذب في قلبه ديب من
الرب والاشفاق وأخذ يفكر فيما إذا كان يرجع اليه ليستقصى
خبره ويستفسر عن حاله أو يستمر في طريقه ، فأثر الاخرى
وظن أنه ان دنا منه فهو ليس بناج من شروره وأيضافه وغير قادر
على اغائة رجل عارى الجسد !

ماخطا سيمون بضع خطوات حتى شعر بتقريع الضمير وأخذ
يسائل نفسه : وماذا أنت فاعل ياسيمون ! أتهرب من إغائة ملهوف
ربما كان على شفا الموت ، أتمدو خوفا من أن تساعد تقسار بما
كانت تلفظ آخر أنفاسها ؟ إنه من العار أن يقال عن سيمون أنه مرفى
طريقه ببائس فلم ينجده وملهوف ولم يغثه ، ثم قفل راجعا نحو ذلك
الغريب المسكين واقترب منه فلم ينتبه اليه كأنما بلغ به الضعف الى
درجة لم يمكنه معها أن يرفع جفنيه أو يدير عينيه . تأمله فرآه فتى
في مقتبل العمر صحيح الجسم لا تشوبه الكلوم ولا تشوهه القروح
ثم اقترب منه ثانية فتحرك الغريب وأدار رأسه الابيض وفتح
عينيه الفاترين والقي نظرة على وجه سيمون فكانت كافية لان

تبعث في قلبه الرحمة على ذلك الغريب وتملأ فؤاده رِفقا وحنانا على هذا البائس المسكين .

ثم البسه بمض ثيابه وأمره بالحركة حتى يتمشى الدم بين أعضائه وبدأ في المسير فأخذ سيمون يسأله « من أين أنت ؟ وما الذي حدا بك الى هذا المكان ؟ أطرقتك بوائق الاحداث أم هل وصلت اليك أيدي المسيئين حتى دفنت حيا بين طبقات الجليد المتجمدة ؟ فاجابه قائلا « اني غريب عن هذه الديار ولم يسيء الى أحد ما ولكنه عقاب الله حق على » فاجاب سيمون :

- « يجب أيها الصديق أن تقابل ذلك بالرضاء والتسليم والله رب الكل ، بيده كل شيء وهو على كل شيء قدير ، والآن أي جهة تقصد . »
- « كل الجهات عندي سواء » ، فبدرت على سيمون علامات

الاندهاش لأن الرجل لم تكن هيئته تشف عن خبث ولم يدل مظهره على أنه من السفلة — واستمر سيمون في حديثه قائلا :
« هلم معي إذا الى المنزل ريثما تدفء نفسك قليلا » ثم سارا سويا وأخذ سيمون يهينم قائلا : « اني ذهبت لشراء الغطاء فعدت الى منزلي بدونه وزيادة على ذلك أحضرت معي رجلا عاري الجسد : ان ما زروينا (١) ليفلي مرجل حقدتها عند ما تعلم ذلك » وكان كلما

(١) زوجة سيمون

عاودته ذكرى زوجته يطرق برأسه عابسا ولكنه كلما تذكر حالة ذلك المسكين ونظراته المؤلمة عاودته بشاشته وطفح ثغره فرحا وسرورا

أما (ماتروينا) فقد أنهت كل واجباتها المنزلية في ذلك الصباح وجلست تفكر في زوجها وما عسى أن يكون قد فعل وإذا بها ترى رجلين مقبلين أحدهما سيمون والآخر غريب لم تعرفه فدار بخلدهما لأول وهلة أن زوجها احتسى بعض كوؤوس من الخمر وما الآخر إلا من أعوانه السكيرين ، ثم بدأت تصخب ولكنها انتظرت ربما ترى ماذا يصنعان : دخل سيمون منكس الرأس خجلا ثم تبعه صديقه الذي ظل واقفا صامتا لا يبدي حراكا فلم تتردد ماتروينا في أنه من السفلة الاشرار . أما سيمون فقد خلع قبعته واستوى جالسا على أحد المقاعد كأن المياه مازالت جارية في مجاريها ولم يحدث شيء يثير غضب زوجته ثم دعا صديقه ليجلس بقربه ففعل . ثم خاطبها قائلا .

« الآن ياماتروينا قدمي لنا ما عندك من العشاء » فنظرت اليه شررا وازداد حنقا واجابته « إني أعددت كل شيء ولكن ليس للسكارى الذين تلعب برؤوسهم الخمر فتخرجهم عن المألوف »
— « ماتروينا ! لا تكثري من تهديجك وضعي حدا لثرتك

يجب أن تعرفي أولاً من هو هذا الرجل « فاجابته « إني لأشك في أنه من أبناء الشريرين . فقال ! « كلا فأنت مخطئة » فقاطعتها قائلة وأين النقود فصمت سيمون فكان ذلك برهاناً زاد اعتقادها فيهما وداعياً قويا حرك فيها عوامل السخط فأخذت تقدح من عينها شرراً وتلفظ من فيها كلمات كلها مقت و غضب وحاولت الخروج إلا أنها كانت تود أن تقف على حقيقة أمر الغريب فخففت من حديثها قليلاً وانتظرت ثم ابتدرته قائلة « إذا لم يكن هذا الرجل كما أعتقد فمن يكون؟ »

— هذا ما أردت أن أوقفك على حقيقة من بادىء الأمر فاعلمى أنى عند ما وصلت الى المعبد في رجوعى من القرية رأيت هذا الرجل جالسا بين طبقات الجليد المتجمدة لاثوب يكسيه ولا دثار يدفع عنه غائلة البرد فأشفقت عليه ودثرته كما ترين ثم آويته الى هنا ولو لم يرسلنى الله فى تلك الآونة لكان قضى نحبه لوقته فخففى من وطأة حديثك واعلمى أنها خطيئة كبرى ياماتروينا وتذكرى أننا سنموت جميعا يوما من الايام « فتمتمت ماتروينا ببعض كلمات يشتم منها رائحة الغضب والقت نظرة على الغريب وظلت صامته

— ماتروينا! ألا توجد فى قلبك عاطفة المحبة — محبة الله

وما سمعت هذه الكلمات من زوجها حتى نظرت الى ذلك الضيف الغريب ثانية فشمرت بعاطفة الرحمة نحوه وقامت لوقتها وأحضرت البقية الباقية مما عندها من الطعام وقدمته لذلك المسكين الذي دفع عنه نظرة فاترة وابتسامه لطيفة عبرت عما في نفسه من الشكر والثناء ، وبعد الانتهاء من أكله أخذت ماتروينا تعيد الى مسامحة نفس الاسئلة التي سأله إياها زوجها من قبل فأجابها بمثل ما أجاب زوجها وختم اجابته بقوله : « ان زوجك دثرني وآواني وأنت أسقيتني وأطعمتني فالله يؤتيكما خيرا » ثم باتا وأصبحا فسأله سيمون « ما الذي يمكنك ان تبشره من الاعمال ؟ » فأجابه « ليس بيدي صنعة ما » فاستمر سيمون في كلامه « ان من يريد أن يعمل فليس من الصعب عليه ذلك » فأجابه « سأتعلم » فبدأ سيمون يعلمه كل يوم درسا من صناعته وكان ميكائيل (١) سريع البديهة فامر ثلاثة أيام الا وكان يبشر العمل كأنه به منذ سنين عديدة . وبعد الانتهاء من شغله كان يجلس وعيناه للسماء لا يتكلم إلا عند الحاجة ولا يميل قط الى المجون والمزاح ، قليل الابتسام ، فلم يروه يتسم الا مرة واحدة ، عند ما قدمت اليه ماتروينا العشاء في أول ليلة من ليالي حياته الجديدة !

(١) اسم الغريب



صكرت الايام وممرت الاعوام وميكاثيل يثابر على العمل
مواصلا ليله بنهاره ، حتى ذاع صيته وعلت شهرته بين القرى
والربوع المجاورة . وفي ذات يوم بينما هم جالسون في كوخهم واذا
بعربة يجرها ثلاثة من الصافنات الجياد تنهب الارض نهبا وتتقدم
نحو كوخهم الخفير وما هي الا بعض ثوان حتى رأوا العربة قد
وقفت أمام الكوخ وقفز منها سيد تلوح عليه أمارات الشرف ومخايل
النبيل ، ضخم الجسم أحمر الوجه ، طويل القامة . فقام سيمون لوقته
وفتح باب كوخه على سمته ثم وقف محييا ذلك الزائر العظيم منجنيا
أمامه بكل تودة واحترام فقال السيد بكبر « من رئيس العمل في
هذا الكوخ ؟ فأجابه سيمون : « أنا يا صاحب العظمة » ثم أمر
الشريف خادمه أن يحضر الجلد فأتى به ووضع على خوان في وسط
الكوخ وبعدئذ وجه السيد كلامه الى سيمون قائلا ألا ترى هذا
الجلد » فأجاب : « نعم يا صاحب الشرف إنه في غاية الجودة »
فقال الشريف بحدة « يالك من أبله أحمق ! أو تشك في ذلك ، إنه
ذو قيمة عالية وأريد أن تصنع لي منه حذاء على شرط أن يمكث
حولا كاملا حافظا لرونقه وشكاه أتقدر ؟ فاضطرب سيمون قائلا
« نعم يمكنني يا صاحب النبيل » فصاح في وجهه ذلك السيد « يمكنك
يدر . يجب أن تعلم لمن ستصنع الحذاء فان لم يكن كما أمرت سأودعك

غيابة السجن ! » فانتفض سيمون فرقا وخوفا وتلعم لسانه وهمس الى ميكائيل يطلب مساعدته في ذلك المأزق فأوماً اليه برأسه علامة للرضاء فقبل سيمون العمل ، ثم هم الشريف بالانصراف فودعه سيمون بمثل ما قابله به من التجلة والاحترام . ومما يجدر بالذكر ملاحظه سيمون أثناء وجود الشريف بالكوخ من أن وجه ميكائيل كان يتهلل بشر أو عينيه تتطالعان الى ما وراء السيد شاخصتين كأن أمامه شبحاً أو طيف خيال ، فكان ذلك موضع دهشة سيمون وعجب ماتروينا :

ثم قال سيمون لصديقه : « هيا ابدأ في العمل أيها الصديق وحذار من الوقوع في الخطأ فان السيد كما رأيت سريع الغضب » فبدأ ميكائيل في صنع الحذاء ولكنه أدهش بعمله ماتروينا اذ رأته يهيء الجلد ويخيطه لا على شكل باقي الاحذية ولكنه على شكل خفاف رقيقة فأسرت ذلك لزوجها الذي ما كاد يراه حتى استولى عليه الدهول وابتدره قائلاً « ماذا تصنع أيها الرفيق ! أنت يا من مكثت معي حولا كاملا بدون أن تزل أو تخطيء أتتقرف في دققة واحدة أعظم الاغلاط . . . » وأراد أن يستمر في تأنيبه واذا به يسمع وقع حوافر جواد فصمت ورأى القادم فاذا هو خادم السيد يقول ! « عموا صباحا أيها الرفاق ، إني أتيت لاجل الحذاء فدهش

سيمون واستمر الخادم في حديثه « نعم الحذاء ؟ فان سيدي ماكاد يفارقكم حتى فارقتة الحياة وأخرجناه من العربية جثة هامدة والآن فقد جئت لاعلمكم أن تصنعوا هذا الجسد خفافا للسيدة » فبهت سيمون ثم تهال وجهره وأقبل الى ميكائيل يقبله فرحا مسرورا ، ثم أعطياه الخفاف فانصرف

مر العام إثر العام وميكائيل عائش الآن في السنة السادسة من حياته الجديدة لا ينطق الا عند الضرورة ولم تعمل الابتسامه شفتيه الامرتين في خلال هذه المدة الطويلة ، وفي ذات يوم بينما هم يعودون يشتغلون ، كل في عمله واذا بأحد أولاد سيمون صرخ مخاطبا ميكائيل « عماه ، هيا النظر فان امرأة معها طفلتان ، مقبلة نحونا » فنظر ميكائيل من إحدى شرفات الكوخ فرأى سيدة معتدلة القوام حسنة الهندام يرافقها طفلتان تتقدم نحو الكوخ

دخلت السيدة فقام سيمون مستقبلا اياها ومرحبا بها ثم سألها الجلوس فقامت وقال لها « إن السرور ليשמاني اذا أمكنني القيام بما تأمريني به » فأمرت بعمل حذاءين للطفلتين فأجابها سيمون الى طلبها . وفي تلك الآونة نظر سيمون الى ميكائيل فرأى عينييه محذقتين بالطفلتين لا يحول عنهما نظره كأنه يعرفهما من قبل فدهش ولكنه لم الصمت

ثم ابتدأت ماتروينا تسأل تلك السيدة قائلة : « يظهر أن ابنتيك توأمتان » فأجابتها « أجل انهما كذلك ولكنهما ليستا طفلتى ولا تربطنى بهما رباط صلاة أو قرابة » فتمعجبت ماتروينا وقالت « عجبنا ! انهما ليستا طفلتيك ثم مع ذلك تشفقين عليهما هذه الشفقة وتظليلهما باجنحة عطفك وحنانك » فقالت السيدة « وكيف لا أشفق عليهما وقد أرضعتهم من ثديي » ثم استمرت المرأة فى الحديث وأخذت تسرد مجمل حكاية هاتين الطفلتين فقالت « لقد اختلطت يد التوأم روح والديهما منذ ست سنين فى أسبوع واحد فأودع الأب رموه يوم الثلاثاء وعلى أثره بثلاثة أيام فاضت روح تلك الام وانتقلت الى دار الخلود أما هاتان الطفلتان فقد ولدتا يوم الخميس الموافق لليوم الثالث من موت والدهما ولليوم الاول من أيام الاسبوع الذى تركتهما فيه أمهما وديعه عند رب العالمين . مسكينة امهما ؛ فقد كانت فقيرة وحيدة ليس لها فى الحياة من يأخذ بناصرها ويقاسمها عزلتها وشقاءها . ومن ذلك اليوم ، يوم الخميس أصبحت هاتان الطفلتان اليتيماتان غريبتين عن العالم أجمع لا تربطهما بأهله أو اصر الصلة أو القرابة

لقد كنت أنا وزوجى مقيمين فى ذلك الحين فى القرية وكانت تربطنا بوالدى الطفلتين رابطة الجوار وقد ذهبت لأزور

تلك المسكينة في صباح أحد الايام فما كدت أخطو بضع خطوات حتى وجمت ذعرا وهالتي مارأيت : نعم إنها لساعة رهيبية مخيفة ! رأيت الام ملقاة على الارض فدنوت منها فاذا هي جثة هامدة تعلمو وجهها صفرة الموت وحو لها طفلتان في المهد تصيحان وتولان كأنهما عدتا برزئهما فأخذتا تناديان أمهما النداء الأخير وتسمعانها صوت بكائهما قبل فراقها الأبدى . . وهكذا في ساعة ولدتها وفي ساعة فقداها .

بعد ذلك انتشر الخبر فتقاطر القرويون الى ذلك الكوخ المشثوم وعنوا بجثة الفقيدة ووضعوها في الكفن ثم واروها في التراب وعيونهم دامعة وقلوبهم يدميها الحزن والأسى — أنهم لقوم محسنون لم يكن للطفلتين نصير كما ذكرت فتكفلت بهما وتعهدت بتربيتهما ولم يكن لى في الحياة سوى طفل صغير اعتبطه الموت فكنت أشعر بالوحدة لو لم يكن هاتان الطفلتان بجانبى وكم يزداد حبي لهما فهما زهرة حياتى ونضرتها »

وبعد أن انتهت من حديثها ضمت اليها بيمينها احدى الطفلتين ومسحت بيسارها عبراتها المنسجمة فتهدت ما تروينا وقالت حقا لقد صدق المثل القائل . « إن الانسان يمكنه أن يعيش بلا أب أو أم ولكنه لا يمكنه ذلك بدون رحمة الله »

ثم ساد السكوت وانبثق نور وضاء من الركن الذي كان فيه ميكائيل وأناركأنه ضوء الشمس القوي في الصيف فنظروا إليه فاذا هو جالس ويداه على منكبيه وعيناه تتطلعا إلى السماء ووجهه يتلألأ وتغره يبتسم .

ما ذهبت المرأة بطفلتها حتى قام ميكائيل وانحنى أمام سيمون وقال « الوداع : الوداع ! لقد غفر لي ربي ولم يبق إلا أن أسألك عفوكم ان كنت ههوت أو أذبت » ثم تلاأت غرته وعلا وجهه غطاء نوري فانحنى أمامه سيمون قائلا عفواً يا ميكائيل فانك لست بشرا سويا وانا ليس في قدرتي أن أرغمك على القيام عندي أو أتجاسر أن أسألك أكثر مما أريد أن تجيبني عنه الآن انك ابتسمت ثلاث ابتسامات فأشرق النور من محياك فخبرتني أيها الصديق عن سر ذلك الا ابتسام ومبعث هذا النور الوهاج فأجاب ميكائيل : ان الله أرسلني لأتعلم ثلاث حقائق وقد أتممتها فابتساماتي الثلاث مظاهر الفرح الذي ملأ قلبي : أما النور فينبعث مني لأن الله غفر ذنبي وسامحنى فقال سيمون : ولم عاقبك الله ؟ وما هي تلك الحقائق التي بعثت لمعرفة فأجابه : اني كنت ملكا في السماء فخالفت أمر ربي إذ أرسلني لأقبض روح امرأة من عباده فهبطت إلى الارض واذا ن أراها مسكينة هزيلة قد وضعت لوقتها توأمتين فلما رأته فقمت

كنه حقيقتي وعرفت أنني أتيت في طلب روحها فأجهشت بالبكاء
وبصوت تقطعه انفصات العميقة توصلت قائلة : «أيها الملك الطاهر
رفقا بامرأة ضعيفة كسيرة القاب قتل زوجها وحرمت من كل
نصير لها في الحياة . أنا غريبة عن العالم أجمع فأمهلي ريثما تترعرع
هاتان اليتيمتان وبعدها أموت راضية مطمئنة بربك لاتعجل
ساعة يتمها حياة الطفل بأمه » فرجعت الى ربي وبلغته رسالتها
فأمرني أن أهبط ثانية وأستل روحها وبعدها أن أدت ما أمرت به
أردت الصعود واذا بأجنحتي تسقط وريح شديدة تصدني فوقعت
بجانب الطريق . فعلم سيمون وماتروينا حقيقة هذا المخلوق الذي
شملاه بمظفهما وحنانهما طول هذه المدة ثم بكيا روعة وجلالا .
أما الملك فأخذ يقص قصته وهو يقول : «لقد هبطت الى الارض
وأنا لا أعرف ما يعترى الانسان من حر وبرد فكادت أموت جوعا
وكادت أعضائي تصير قطعة من الجليد ولكني لم أدر ماذا أفعل ؛
ذهبت الى المعبد لآوى اليه فوجدته موصداً فجلست بجانبه
واتسكأت على جدرانها اتقاء من العاصفة الشديدة وبيننا أنا كذلك
أشعر بالجموع والبرد إذ مر على أول مخلوق أرضي وقعت عليه
عيني منذ صرت رجلا أشعر وأتألم . تمثلت أمامي صورته فرأيت
فيها قبس النظر متجسما وظننت أن الله لم يخلق أفضع منه شكلا

فخوات بصري عنه وأما الرجل فما كاد يراني حتى استولى عليه
الرعب وسار من طريق آخر حتى لا يمر بي فلا اليأس قلبي ولكني
مالبت أن رأيت راجعا نحوي ونظراته تم عن حب كامن وعطف
مستتر فدثرني بشيابه وآواني الى منزله حيث قابلتنا زوجته وعيناها
تقدحان شررا وغضبا ولكنها مالبت أن خفت من حديثها وعطفت
على فقدمت لي الطعام وكؤوس الشراب وإذذاك اتهمت الدرس
الأول من دروسي وتعلمت إحدى الحقائق الثلاث وهي : ماذا
يكمن في الانسان فعلمت أنها «الرحمة» وحدها

جاء السيد بعد ذلك بعام واحد فأمر بعمل حذاء لا يبلى قبل
مرور حول كامل ورأيت وراءه رفيقي ملك الموت فعلمت أن
الشمس لا تقرب حتى تقرب حياة ذلك السيد وإذذاك وقفت على
سر الحقيقة الثانية وهي : «ما الذي لم يحيط به الانسان علما» فعلمت
أنها «حاجيات نفسه» وهنا ابتسمت ابتسامتي الثانية إذ لم يبق أمامي
الا الدرس الأخير وليس بيني وبين ملكوت السموات الا فرج
الله النهائي ظلمت عائشا معكم أنتظر مشيئة الله الى أن أتت التوأمتان
فعرفت الطفتين ولما سمعت كيف عاشا الى هذا الوقت وتذكرت
قول أمهما (ان الطفل لا يعيش بدون رحمة أمه وعطفها عليه)
تحققت بطلان هذه الدعوى ولما تساقطت الدموع من عيني تلك

المرأة — دموع الرأفة والرحمة — وضمتها الي صدرها الممتليء عطفا
وحنانا عرفت أن في قلبها عاطفة سامية هي عاطفة (الرحمة) التي
هي سر الحقيقة الاخيرة وهي . (يم يعيش الناس)
اني لم اظل حيا لاني اخذت الحيلة لنفسى بل لأن الله قيض
لي انسانا منحني بعض ما في نفسه من (الرحمة) فشمالاني هو وزوجه
بعطفهما وحنانهما . كذلك اليتيمتان بقيتا تستنشقان نسيمات الحياة
الى هذا الوقت لابعتناء أمهما ولكن لان عاطفة الرحمة تحركت في
قلب امرأة غريبة عنهما فعنت بأمرها وبكت من أجلهما . فالعالم كله
والناس أجمعون لا يعيشون في هذا الكون بمحض تدبيرهم وارادتهم
وبما يعملون لحفظ كيانهم فحسب ولكنهم يعيشون بعاطفة الرحمة
التي أودعها الله في الانسان فهي التي تحفظ فيهم حرارة الحياة
« ان من برحم فقد تقرب الى الله لانه هو الذي خلق فيه الرحمة »
وبعد ان أتم ميكائيل قوله غي الشودة الهية فاضطرب الكوخ
وخر سيمون وأهله مغشيا عليهم ، ثم فتح السقف من فوقه
وظهرت الآجنحة على ذراعي الملك ثم صعد عمود من الدخان الي
السماء وهكذا ارتفع الملك الي عرش ربه ولما تاب سيمون الي رشده
وجد كوخه كما كان والتفت يمنة ويسرة فلم ير الا اسرته الاولى

٢

مشرب سورات (١)

عجبت لكسرى وأشياعه
وغسل الوجوه بيول البقر
وقول النصرى إله يضا
م ويظلم حيا ولا ينتصر
وقول اليهود إله يحب
رسيس النساء وريح القتر
وقوم أتوا من أقاصى البلا
د لرمى الجمار ولثم الحجر

(١) قد ترجم صديقنا احمد افندى شاكر الكرمى هذه القصة ونشرها في كتابه الكرميات تحت عنوان الفلسفة الشرقية ونسب وضعها الى برناردين دوسانت بيير وقد غمط بذلك حق تولستوى لانها من وضع تولستوى ولكنها مقتبسة من أصل فرنسى للكاتب المذكور وقد نقلها حضرته عن الانجليزية من كتاب Twenty three tales from Tolstoy وهو نفس الكتاب الذى ننقل منه هذه القصص وقد لاحظت عليه انه ترك اسطراً منها بدون ترجمة فضلاً عن انه اهمل كثيراً في ترجمة كثير من الجمل ولذلك لم نربدا من اعادة ترجمتها في كتابنا هذا خدمة للحقيقة

فوا عجيبا من مقالاتهم أيعنى عن الحق كل البشر « المعرى »

كان في مدينة سورات في الهند مشرب يجتمع فيه الكثير من الغرباء السائحين وأهل الأسفار المتجولين من مختلف الاقطار للسمو والحديث . وقد اتفق أن رجلا فارسيا من علماء اللاهوت أم هذا المشرب في أحد الايام وكان قد صرف أيام حياته يدرس كنه الاله وحقيقته ، غير تارك بحثا كنه الاولوزي ذلك الموضوع الا قرأه وكتب عنه وما زال هذا شأنه يفكر ويقرأ ويكتب حتى سلب عقله واضطربت عقيدته وانتهى به الامر الى انكار وجود الخالق ثم اتصل خبره بالشاه ، ملك قاس فأمر بأن ينفي من مملكته لم يجن المسكين أى ثمرة من مجهود بحثه ودراسته في المسبب الأول وبدل أن يفهم أنه فقد عقله سلك سبيل انكار وجود ارادة عليا مسيطرة على عالمنا الارضى

كان لذلك العالم عبد اسود يتبعه حيثما سار ، فلما ولج باب المشرب جلس العبد على حجر خارج الباب تحت أشعة الشمس واخذ يضرب اسراب الذباب التي كانت تطن حوله ، اما سيده فجلس على اريكة مستطيلة داخل المشرب وطلب فتجانا من

الافيون وتجرحه . وبعد ان دب مفعول المخدر في تلافيف دماغه
أخذ يحدث الخادم من خلال الباب المفتوح قائلاً :

- خبرني أيها العبد التمس أعتقد أن هنالك إله أم لا ؟
فأجابه العبد بقوله :

- لا ريب في أن هنالك إله

ثم أخرج نواً من منطقته صمًا من خشب وهو يقول

- هذا هو الإله الذي حرسني منذ ولدت . كل انسان في

بلادنا يعبد الشجرة المقدسة التي من خشبها عمل هذا الإله

استرعت هذه المحاورة للدائرة بين اللاهوتي ومولاه انتباه

ضيوف المشرب الآخرين وقد أدهشهم سؤال العالم وزادهم جواب

مولاه دمهشة ، فانهى رهى من الحاضرين عند سماعه كلمات

العبد وقال

- أيمكن أن تصدق أيها البائس الاباه أن الآله يحمل في

منطقة رجل ؟ ليس هناك إلا إله واحد هو برهما هو أكبر من

العالم بأسره لأنه خالقه . ان برهما هو الإله الاحد القدير ، وباسمه

المعظيم بنيت المعابد على ضفاف نهر الكنجج حيث يعبد الكهنة

البرهميون الذين يعرفون دون سواهم الإله الحق ، لقد مضت

عشرات الالوف من السنين وتوالت الانقلابات تلو الانقلابات

وهؤلاء الكهنة محتفظون بنفوذهم ؛ ذلك لأن برهما الإله الواحد الحق باسط عليهم جناح حمايته .

نطق البرهمي بهذا القول وهو يظن أنه أقنع كل انسان الا أن سمساراً يهودياً من الحاضرين رد عليه قائلاً :

كلا ان معبد الآله الحق ليس في الهند ، وما كان الله ليحامي طائفة البراهمة بل هو رب ابراهيم واسحاق ويعقوب وهو لا يحمي سوى شعبه المختار شعب اسرائيل . ان شعبنا وحده هو المحبوب عند الله منذ بدء الخليقة . واذا كنا اليوم مشتتين في أنحاء الارض فما ذلك الا لأن الله يريد أن يبلونا لانه وعده أنه سيجمع شمل شعبه في يوم من الايام في اورشليم ويرجع حينذاك الى البيت المقدس ، أعجوبة الزمن القديم ، محده السالف وسيكون اسرائيل يومئذ حاكم كل الشعوب

وبعد أن أتم اليهودي قوله انخرط في البكاء ثم أراد اعادة

الحديث لولا أن قاطعه مبشر ايطالي كان هناك بقوله

— ان ماتقوله غير صحيح وانك لتفتري على الله لانه يستحيل

أن يحب قومك أكثر من حبه سائر الاقوام ولو كان حقاً أنه فضل بني اسرائيل قديماً فإنه قد مضى تسعة عشر قرناً منذ أن أغضبوه وحلوه على تدميرهم وتفريقهم أيدي سبأ في مناكب الارض ، فلم

يجب لهم ايمانهم أدنى سعادة . هذا الايمان طوته يد الفناء اللهم الا
ما بقى منه حقيرا هنا وهناك ، ان الله لا يفضل قوما على قوم بل
هو يدعو الجميع — من أراد منهم النجاة والفوز — للالتجاء الى
أحضان كنيسة روما الكاثوليكية التي لا يجد الخارجون عن
حدودها خلاصا

كان في الحلقة قسيس بروستانتى ، لم يكذب بطرق سمعه هذا
القول حتى امتقع لونه والتفت الى المبشر الكاثوليكي وقال له
« كيف تقول أن الخلاص مختص بذهبكم ؟ ان الناجين هم الذين
يعبدون الله بروح العزم والاخلاص كما نص الانجيل وكما أمرت
كلمة المسيح » عند ذلك التفت تركى من الموظفين فى جمرک
— ورات كان جالسا يدخن قصبته وقال بروح الاتفة للمسيحيين .
— ان ايمانكم بدينكم باطل لان الدين المسيحي قد نسخ منذ
اثني عشر قرنا بدين محمد الحق . انكم تعرفان ولا شك ان دين محمد
الحق مازال آخذا في الانتشار فى كلتا القارتين ، أوروبا وآسيا ،
حتى فى بلاد الصين المتأخرة المظلمة وقد قلما نفسا كما ان الله نبذ
اليهود واستشهدت على بطلان ديانتهم بذلتهم وعدم انتشار دينهم ،
« عترقا اذن بصحة الدين المحمدى لانه منتشر متفوق . سوف لا
ينجو أحد سوى أتباع محمد خاتم النبيين وينجو من أتباعه أشباع

عمر (١) فقط ! أما أشياع على فلا لأن إيمانهم باطل
هنا أراد اللاهوتي الفارسي الذي كان من شيعة علي أن يعترض
لولا أن ارتفع اذذاك ضجيج الحاضرين من مختلفي العقائد ومتبايني
الاديان فقد كان فيهم عدا من ذكرنا مسيحيون من الحبشة ولا ميون
من التيبت واسماعيليون وعباد نار فتجادلوا واشتدت حدتهم فكان
كل واحد منهم يؤكد أن الآله الحق لم يعرف ولم يعبد كما يجب في
غير بلاده الا رجل صيني من أتباع كو تشوشوس كان جالسا جلسة
هادئة في زاوية من زوايا النادي يحتسى كووس الشاي وهو مصغ
لما يقوله الآخرون ولا ينبس ببنت شفة فلاحظه التركي جالسا
هنالك فتقدم اليه يقول :

- انك تستطيع أن تثبت ماقلته أيها الصيني الصالح ، انك
تحافظ على هدوئك وسكينتك . ولكن اعلم أنك ستؤيد رأيي أن
تجارا من مواطنيك الذين يأتون الى ملتصين مني المساعدة أخبروني
أن بالصين أديانا كثيرة الا أنكم معاشر الصينيين تعدون دين محمد
خيرها جميعها وتقبلون على اعتناقها باشتياق زائد . تفضل اذن وأيد
قولي . بين لنا ما اعتقادك في الآله الحق وفي رسوله ؛

فقال الباكون : نعم . نعم ملتفتين الى الرجل الصيني قائلين له

(١) يريد بأشياع عمر اهل السنة والجماعة

– ماذا ترى ؛ دعنا نسمع رأيك في هذه المسألة

عند ذلك أطبق الرجل الصيني عينه وفكر برهة ، ثم فتحها ثانية وقال بصوت هاديء رزين بعد أن أخرج يديه من كمبه الواسعين وربعهما على صدره

– سادتي تخيل الى أن الكبرياء خاصة هي التي تقف حجر عثرة في سبيل الاتفاق على مسائل الاديان واذا تفضلتهم على بالاصفاء فسا أقص عليكم حكاية تشرح مسألة هذا الاختلاف

لقد جئت هنا من الصين على ظهر سفينة انكليزية طافت العالم وقد اتفق أن فرغ الماء منا فاضطررنا أن نرسو في سواحل سومطرة الشرقية لتزود ماء ، فاعتنم بعضنا هذه الفرصة ونزل الى اليابسة ، وكان الوقت ظهرا . جلسنا تحت ظلال صف من أشجار جوز الهند على بعد من احدى قرى الجزيرة ، وقد كنا من أجناس مختلفة ولم يكد يستقر بنا المقام حتى أبصرنا رجلا أعشى يقترب منا وعلما بعد ذلك أنه فقد باصرتيه من كثرة تحديقته بالشمس وهو يحاول أن يعرف ماهي لاجل أن يقبض على نورها وقد صرف وقتا طويلا لتحقيق هذه الامنية بتحديقته المستمر في الشمس ولكنه لم يجن من ذلك أى نتيجة سوى اصابة عينيه من شدة الضوء حتى أصبح ضريراً . فقال حينئذ مخاطب نفسه .

- ان نور الشمس ليس سائلا لانه لو كان كذلك لا يمكن
صبه من اناء لا آخر ولوجب أن يحركه الهواء كما يحرك الماء وليس
هو نار الا لانه لو كان كذلك لوجب أن يطئفه الماء وليس هو روحا
لانه يرى بالعين ولا مادة لانه لا يمكن تحريكه . ومادام نور الشمس
غير سائل ولا نار ولا روح ولا مادة فهو لاشيء

على هذا المنوال أخذ في القياس والجدل وكانت النتيجة التي
جناها من كثرة احداقه بالشمس وتفكيره في ماهيتها ان فقد بصره
ثم عقله وقد ازداد رسوخا في عقيدته بعد عماء

وكان مع ذلك الاعمى عبد يقوده فلما وصل به الي الظل أجلسه في
مكان ثم التقط جوزة كانت ملقاة على الارض وشرع في عمل
سراج منها . فلف فتيلة من الياقوت ثم عصر منها زيتا في قشرتها
وغمسها فيه وبينما كان العبد عاكفا على عمله تنهد الاعمى وقال له .

- ألم أك محقا عند ما اخبرتك أنه لا توجد شمس الا ترى
ما أشد الظلام . ومع ذلك فان الناس مازالوا يقولون ان هناك شمسا!
اذا كان ما يقولونه حقا : فليقولوا لي ماهي تلك الشمس ؟ فقال
له عبده

أنا لا أعرف الشمس ولا يعني أن أعرفها ، ولكن اعلم ماهو
النور وهما قد صنعت لنفسى سراجا استطيع بواسطته ان أخدمك



وان أجد مأريده في كوخنا . ثم رفع العبد قشرة الجوز قائلا
هذه شمسي .

فضحك لهذا القول رجل أعرج له عكازان كان جالسا على
مقربة منهما وقال :

- انك على ما يظهر قضيت كل حياتك ضريرا . لا تعرف
ماهي الشمس . اني سأخبرك عن ماهيتها . انها كرة من نار تطلع
كل صباح من جوف البحر وتغيب بين جبال جزيرتنا في كل مساء
وكلنا نشاهد ذلك ونراه ولو كنت بصيرا لرأيتة أيضا .
فقال صياد كان يستمع حوارهما .

- يظهر انك لم تخرج من هذه الجزيرة قط . فلو كنت غير
أعرج ولو كنت خرجت الى ماوراء الجزيرة كما أخرج أنا في قارب
الصيد لعدت أن الشمس لا تغرب بين جبال جزيرتنا ولكنها كما
تشرق من المحيط كل صباح تغرب كذلك في البحر كل مساء ، ان
ما أقوله لك حق لانني أراه كل يوم بعيني رأسي . فقاطعه حينذاك
هندي من جماعتنا قائلا :

- انه ليدهشني أن يقول رجل عاقل مثلك نظير هذه الترهات
قل لي كيف يمكن أن تنزل كرة من النار في الماء ولا تنطفئ ؟ ان
الشمس ليست كرة من نار ، بل هي الاله (ديفا) الذي يركب

مركبة تدور حول الجبل الذهبى (مرد) أبد الدهر وقد يحدث فى
بعض الاحيان ان الشعبانين الشريرين (واغو) و (كتو) يهاجمان
ديفا ويبتلعانه فتظلم الارض إذذاك ولكن كهنتنا يصلون لأجل
خلاصه فيخلص. ان الجهال الذين على شاكلتك والذين لم يتجاوزوا
حدود جزيرتهم يتصورون أن الشمس تشرق فى بلادهم فقط .
وجاء الدور لربان مركب مصرى كان حاضرا فقال:

- لا انك أنت أيضا مخطيء . فان الشمس ليست إلها ولا
تدور حول الهند فقط وحول جبلها الذهبى . اننى ركبت كثيرا من
البهار فطفت البحر الاسود وسواحل جزيرة العرب وزرت
مدغشقر والفلبين فرأيت الشمس تضىء الارض كلها لا الهند
وحدها ، وشاهدتها لا تدور حول جبل بل تطالع من أقصى الشرق
وراء جزائر اليابان وتغرب فى أقصى الغرب وراء الجزر البريطانية
وهذا هو السبب فى تسمية اليابان ببلادهم (نيفون) أى مطلع
الشمس ، اننى أعرف هذا حق المعرفة لاننى رأيت بنفسى كثيرا
وسمعت أكثر من جدى الذى وصل برحلاته الى أقصى تخوم
البهار . كان المصرى يود أن يستمر فى كلامه لولا ان بحاراً
انكليزيا من طائفة سفينتنا قاطعه فقال :

- أنه لا توجد بلاد يعرف أهلها الشىء الكثير عن الشمس



وحرركاتها كأنجاترا . ان الشمس - كما يعلم كل واحد في انجلترا -
لا تطلع من مكان ولا تغرب في مكان بل هي تدور دائيا حول
الارض ، ونحن على ثقة من هذا لاننا طفنا العالم فكننا حينما توجهنا
نرى الشمس تبرز للانظار في النهار وتختفي في الليل كما هو الحال هنا
ثم أخذ البحار عصا وشرع يخط على الرمل دوائر محاولا ان
يصور حركات الشمس في السموات ودورانها حول الارض الا
أنه كان عاجزا عن توضيح ذلك فإشار الى دليل السفينة وقال :
- ان هذا الرجل أكثر مني علما بالامر وهو يستطيع أن يوضحه
لكم تماما .

وكان الدليل متوقد الذهن الا أنه كان صامتا منذ البداية ،
مصغيا الى كل ما قيل فلم ينبس ببنت شفة حتى دعي للقول فقال
والكل مصغ اليه :

- انكم جميعا يخذل بعضكم بعضا وتفشون أنفسكم . ان الشمس
لا تدور حول الارض ولكن الارض هي التي تدور حول الشمس
وهي في أثناء دورانها هذا تدور حول نفسها مرة في كل أربع
وعشرين ساعة . وفي تلك المدة لا ترى الشمس في بلاد اليابان
والفلبين وسومطرا فحسب بل ترى أيضا في افريقيا واوروبا
وأمركا وكثير من البلاد الاخرى . ان الشمس لا تشرق على بعض



الجبال أو على بعض الجزر أو على البحار حتى ولا على أرض واحدة فقط ، بل هي تشرق على السيارات الاخرى كما تشرق على أرضنا ولو أنكم نظرتم الى السموات فوقكم عوضا عن أن تنظروا الى الارض التي تحت أرجلكم لاستطعتم أن تعرفوا ذلك كله ، ولما تماديتم في الاعتقاد بان الشمس تشرق عليكم فقط أو على بلادكم وحدها . هذا ما قاله ذلك الدليل العاقل الذي ضرب في انحاء الارض وأكثر من رصد السموات العلاء

ولما بلغ الصيني تلميذ كوفوشيو س الى هذا الحد قال : وهكذا مسائل الاعتقاد والايان . ان الكبرياء والعناد هما سبب الاختلاف بين الناس كما حصل من اختلاف أوائل القوم في فهم حقيقة الشمس ان كل واحد في الارض يريد أن يكون له إله خاص به على الاقل خاص بوطنه وقومه . وكل أمة تريد أن تحصر المعبود الحق في معابدها وهو الذي لا تسعه السماوات أستطع معبد من المعابد أن يضاهي ذلك المعبد العظيم الذي شاده الله ليوحد الناس ويجمعهم على عقيدة واحدة ودين واحد ؟

ان كل المعابد البشرية شيدت على مثال هذا المعبد الذي هو دنيا الله . ان لكل معبد جرن ماء معموديته وسقفة المعقود ومصايحه وصوره أو دماه ونقوشه وكتب تشريعه وذبائح ومذابحه ورهبانه

ولكن في أي معبد من المعابد يوجد جرن للمعمودية يشبه البحر المحيط؟ وسقف معقود كاسماوات ومصاييح كالشمس والقمر والنجوم؟ وأي رسوم تماثل الأحياء الطائفة قلوبهم بالحب الذين يعاون بعضهم بعضا؟ وأين البركات الكنيسية من تلك العطايا الآلهية السهلة الفهم التي يمنحها الله لسعادة الإنسان؟ وأين يوجد قانون ناصع جلي يفهمه كل إنسان مثل ذلك القانون المنقوش في قلوب البشر وضماثرهم؟ وأي ضحية تساوي إنكار الذات الذي يفعله الرجال المحبون والنساء المحبات كل منهما الآخر؟ وأي مذبح يساوي قلب الرجل الصالح الذي يقبل الله الضحية عليه؟ إن قربي المرء من الله تكون بقدر سمو اعتقاده به تعالى فكلاهما سما اعتقاد المرء بالله كلما كان أقرب منه وأدنى لتقليد كماله جل شأنه والتأسي برحمته ومحبه للإنسان، لهذا يجب أن يمتنع ذلك الذي يرى نور الشمس بأسره مالتا أرجاء الكون عن أن يلوم أو يحتقر الرجل الخرافي الذي يرى في صنمه شعاعا من ذلك النور نفسه، بل وإن يمتنع أيضا عن لوم أو احتقار الملحد الذي هو أعمى لا يبصر شعاع الشمس مطلقا»

هكذا تكلم الصيني تلميذ كونفوشيوس فشمّل السكوت كل من في النادي وكان ذلك آخر العهد بينهم وبين المجادلة في الأديان والمعائد

— ٣ —

« كم هو نصيب الانسان من الارض »

هبط بالقارىء الكريم الى قرية صغيرة من قرى بلاد الروس
و ندخل به احدى أكوأخها حيث يرى سيدتين جالستين على مائدة
واحدة تتناولان الشاي وتتسامران، احدى هاتين السيدتين وهى
الكبرى حضرية يشغل زوجها بالتجارة وقد جاءت لتقضي بضعة
أيام مع شقيقتها القروية الجالسة أمامها، وبينما هما فى مسامرات
لطيفة وحديث شهى أدى بهما الكلام الى المقارنة بين معيشة أهل
الريف ومعيشة أهل المدن فاندفعت الحضرية تبين اشقيقتها نضارة
الحياة فى المدن وما فيها من الترف والنميمة فى الأكل والملبس
والمسكن ثم عدت لها صنوف الملاحى وضروب الرفاهة التى
يتنعمون بها . وتدرجت الى وصف أماكن اللهو ودور التمثيل
والحدائق والمتنزهات العامة التى يغشونها رياضة للنفس وترويحاً
للخاطر كل ذلك وشقيقتها القروية ساكتة لا تبدي ولا تعيد . لان
تلك كانت قد أفحمتها بذلاقة لسانها ، الا أنها تمكنت أخيراً من
تغيير مجرى الحديث قائلة :

— أنا قائمة بمعيشتي هذه البسيطة ولو خيرت بينها وبين

معيشتكم لما فضلت سوى ما نحن فيه من بساطة ملؤها السعادة
والهناء ، لامراء في ان دخلكم أوفر من دخلنا الا أن طراز معيشتكم
يتطلب نفقات كثيرة قد تربو على الدخل ولا يخفى ما في ذلك من
سوء العاقبة . فكم من أسر غنية كانت بالامس ترفل في حلل الرفاهة
والنعيم أصبحت اليوم بلا مأوى تسأل الناس قوت يومها فلا تجده
أما نحن القرويين فقل أن يوجد بيننا من يعيش عيشة أهل الثراء
ولكننا لانعدم قوت يومنا على أي حال . فاجابتها الكبرى وقد
امتلاّت غيظاً:

- كفى يا عزيزتي يحق لك أن تقولي ذلك طالما تجدين لذة
بساكنة المعجول والخنازير . ما أبعدكم عن محبة اللطف والكمال أيها
القرويون . بل ما أبعدكم عن معرفة ما فيه صلاح معاشكم ومعادكم انكم
تجهدون أنفسكم صفاراً وكباراً دائبين في العمل ليلاً ونهاراً ، صيفاً
وشتاء ، ثم تموتون كما عشم فقراء لا تورثون أولادكم سوى النصب
والشقاء .

فأجابتها الصغرى .

حقاً ان ما نحن فيه من العيش جاف والعمل عندنا شاق إلا
أنه لم تتسرب الى ربوعنا مفسد المدينة ورذائلها بعد وأخلاقنا على
سذاجتها خالية من شوائب الاهواء النفسانية ولذا نعيش ما عشنا

في هدوء وسلام . ولكن أنتم في مدنكم تعيشون في جو محاط
بالمكر والرياء ، لا تأمن الزوجة فيه على بعلمها ولا يطمئن الرجل
لزوجته . إذا بتم ليلة على وفاق لا تلبثون أن تصبحوا على شقاق .
قد يأتي يوم على زوجك فتستغويه إحدى الغانيات - وما أكثرهن
في المدن - فتفقدن إذذاك هناءك العائلي ونعيمك المنزلي ، أو
يوسوس له الشيطان بمعاقرة بنت الحان فيصبح من مدمنيها فيضل
سواء السبيل ، أو يسوقه الطمع الى موائد القمار وهناك البلية
والدمار

ثم غيرت المرأتان مجرى الحديث وخاضتا في حديث آخر
خاص بالازياء وكانتا قد أتمتا تناول الشاي فقامتا تستعدان للنوم إذ
كان النعاس قد أثقل أجفانهما .

أمارب المنزل (باهوم) فكان جالسا على الموقدة يسمع حوار
المرأتين طوال تلك المدة ثم ناجى نفسه قائلا . « حقا ان شقيقة
زوجتي على حق في بعض ماتقول ، فانا القرويين نعيش ماعشنا في
تعب ونصب ثم يموت الواحد منا كما عاش دون أن يجنى أقل ثمرة
من عمله . آه لو كنت أملك قطعة صغيرة من الارض لكنت الآن
هنىء البال قرير العين لا أخاف حتى رئيس الابالسة » . فسمع حديث
نفسه ابليس وكان على مقربة منه فابتسم ضاحكا وقد عزم أن ينيله

بغيته ثم يورده موارد المهلكة من حيث أطمعه . وكان بينهما بعد ذلك من الحوادث ماسوف تقرأ خبره في الفصول التالية :

أصبح باهوم والطمع يقيمه ويقعده ولا يملكه الا امتلاك أرض يصبح فيها صاحب السكامة المطلقة يأمر وينهى كما يريد . وكان بالقرب من الأرض التي يزرع فيها حبوبه قطعة فسيحة من الأرض لسيدة من ذوات الاملاك طيبة القلب لينة العريكة اعتادت أن تعامل جيرانها باللطف والانسانية ، الا أنه عرض لها أمر ذوبال لهاها عن تعميد الأرض بنفسها فوكلت أمر زرعها واستغلالها لوكيل أشغالها الذي كان على جانب عظيم من الخشونة وقساوة الطبع فأخذ يذيق ضعاف القرويين جيرانه مر العذاب ويثقل كاهلهم بالغرانات التي كان يفرضها عليهم من حين لآخر . وقد حرص باهوم كل الحرص على منع أسباب التحكك بجاره الفليظ الطبع ولكن رغم ما كان يبذله من الاحتياطات والتحرز كانت بعض ماشيته تتسرب الى المزرعة فيقع بينه وبين الوكيل أخذ ورد ينتهي في الغالب بغرامة يتحملها المسكين طائعا صاغرا .

أقبل الشتاء برده القارس وابيضت ذوائب الجبال وانكشيت الماشية في زرائبها فارتاح بال (باهوم) وعاش آمنا في سربه طول

فترة الشتاء ، ثم شاع في القرية أن السيدة صاحبة المزرعة عزمت على بيع أرضها صفقة واحدة وتلا هذه الاشاعة خبر مؤداه أن صاحب الفندق القائم على الطريق العالية يساومها في شراء المزرعة فذعر أهل القرية لهذا الخبر وتوجسوا منه خيفة ، لأن صاحب النزل كان أغلظ طبعا من وكيل السيدة فجمعوا جموعهم وتشاوروا في الامر ، فقر رأيهم على تأليف لجنة تقوم بشراء الارض . فتألفت اللجنة وأرسلت من قبلها وفدا الي السيدة المالكة لشراؤها ، فقبلت السيدة ولم تمنع ، الا أن الشيطان أوغر صدور بعضهم على بعض فتخاذلوا وفشلوا في مهمتهم وأخيرا عزموا على شراء المزرعة قطعا بدل شراؤها صفقة واحدة وأن يساوم كل منهم سيدة الارض في القطعة التي يروم ابتياعها . جرى كل ذلك وباهوم ساكت لا يحرك ساكنا ينظر والمها الي المزرعة وهي تباع قطعة قطعة الى أن كان ذات يوم وقد سمع ان أحد جيرانه ابتاع من السيدة قطعة من المزرعة تبلغ الخمسين فدانا وقد دفع نصف ثمنها نقدا وتعمد بدفع الباقي اقساطا لمدة سنة ، فناجى نفسه يقول : « الي متى أظل ساكنا والارض تباع » ثم حدث امراته بآماله وقد خاطبها قائلا .

الـ الا ترين كيف ان أهل القرية يتهافتون علي شراء المزرعة

ونحن هنا لانحرك ساكنا ؟ كلا ان هذا لا يطاق يجب أن نسعى في



شراء قطعة من الارض ولو عشرين فدانا على الاقل سيما وأن الحياة أصبحت عبثا ثقيلا بمضايقة هذا الفظ. وكيل السيدة .

تم فكرا كثيرا في الامر وتصفحا كل وجوه الراى وأخيرا قر رأيهما على الشراء ولم يكن عند باهوم سوى بضع عشرات من الروبلات فباع مهرة كانت عنده وباع كذلك نصف ماله من خلايا النحل وبعض أثاث المنزل وأجر اثنين من أولاده في احدى المزارع لمدة عام ، وأخذ أجرتهما مقدما ثم اقترض الباقي من أحد انسبائه فتوفر لديه جملة من المال يمكنه بها شراء قطعة صالحة من الارض . فذهب الى السيدة وساومها في قطعة من الارض تبلغ الاربعين فدانا وفيها أجمة صغيرة . واتفق معها على دفع نصف الثمن فورا وتعهد بدفع الباقي اقساطا على سنتين وحرر على نفسه وثيقة بالمبلغ .

تمت المبايعة وسجلت بمحكمة البلدة ووضع باهوم يده على الارض ثم مضى العام وكان المحصول جيدا فوفى ماعليه من الديون وبذا أصبح يملك قطعة من الارض يجول النظر فيها على فسيحة شتى الالوان كثيرة الغناء ؟ وكان كلما مر بأرضه الجديدة رقص قلبه طربا ونظر اليها بغير العين التي كان ينظر اليها من قبل ، فعاش ردحا

من الزمن لا يعكرو صفو حياته الا تسرب مواشي الجيران الى الحقل من حين لاخر . فلولا هذا الممكر لكان هناؤه أتم الا أنه احتمال ذلك في مبدأ الامر واكتفى بتحذير أصحاب المواشي، غير أن ذلك التحذير لم يجد نفعا ، فعمد الى التقاضى وأدى به الامر الى مشاكل عديدة أحفظت عليه صدور أهل القرية ، فأخذوا يعادونه سرا وجهرا أو يطلقون مواشيهم ، ترتع في مراعيه عمدا بعد أن كانت تتسرب من نفسها على غير قصد . ثم هموا مرارا باحراق مزرعته وايصال الاذى اليه بطرق مختلفة مما أدى الى شدة البغضاء واتساع خرق العداة وبذا فقد هناءه القديم وأصبح مشغول البال لا يغمض له جفن ولا يهنأ له عيش

وشاع في ذلك الوقت أن هناك أرض زراعية جديدة عرضتها الحكومة للاستثمار وأن الناس من جميع القرى يهاجرون الى تلك الاراضى . ففكر باهوم في نفسه وقال : «فليهاجر من أراد من أهل القرية أما أنا فلا أبرح مكاني وسوف انتهر هذه الفرصة لتوسيع ممتلكاتي فاشترى بعض الاراضى التي يتركها أصحابها» .

وبينما كان باهوم يمني النفس بهذه الآمال اذ نزل بضيافته قروى كان مارا بعزبته فاكرم باهوم مشواة فسأله أين كان فاخبره القروى أنه كان يشتغل في جهات (الفولجا) حيث الاراضى التي كانت

تستمر حديثا هناك وافضي به الحديث الى وصفها والاطناب في
خصوصيتها وجودتها زاعما أن الشيلم الذي يزرع في تلك الاراضى
ينمو حتى يصير طوله أعلى من قامة الفرس ثم أتم حديثه قائلا : ان
أولياء الامور هناك يتبرعون بخمس وعشرين فدانا لكل من أراد
استثمار تلك الاراضى الخصبية وان رجلا من أهل قرية باهوم
حضر تلك الجهات صفر اليدين خالى الوفاض فاصبح الآن يملك
سنة خيول ورأسين من البقر ،

فقال باهوم في نفسه مالذي يمننى من هجر هذه البقعة
الضيقة الي تلك البقاع الفسيحة حيث الريح الوافر والثراء العاجل
وانى لا كونن من الحمقى اذا لم انتهز هذه الفرصة السانحة ولكن
على أن أتحقق الامر بنفسى أولا »

كان الوقت شتاء فبعد ينتظر أوائل الصيف حتى اذا حل
الربيع كان قد أمم معدات السفر فركب زورقا بخاريا أقله حتى سمارا
ومن ثم قطع ثلثمائة ميل على أقدامه حتى وصل المكان المقصود
فوجد الارض كما وصفها القروى وشلم أن الفلاح المستثمر يعطى
قطعة لا تقل مساحتها عن خمسة وعشرين فدانا وان هناك أرض
أخرى معروضة للبيع قيمة الفدان منها لا يزيد عن ثلاث روابل
فقرح باهوم بهذا الاستكشاف وقفل راجعا الى قريته بعد أن تحقق

صدق أنخبر وما وصل إليها حتى شرع في بيع ممتلكاته وتهيئة ما يلزم للمهاجرة هو وأفراد العائلة .

وفي أوائل فصل الربيع سافر إلى مقره الجديد وحط الرحال في قرية كبيرة من قرى تلك الأراضى وكان حظه منها هو وأولاده خمسة انصبه بلغ مجموعها ١٢٥ فدانا في جهات متفرقة من القرية التي استوطنها أى أضعاف ما كان يملكه في قريته الأولى فاصبح لديه حقل واسع ومرعى فسيح ترتع فيه كثير من الماشية . ثم مضت أيام اشتغل أثناءها باهوم بتخطيط المزرعة وبناء العزبة وشراء الدواب اللازمة للعمل ولذا كان في مبدأ هجرته قائما بحياته الجديدة فرحا بما رزقه الله الا انه ماكاد يتم ما شرع فيه حتى تسلط عليه الطمع ثانيا فصار ينظر الى أرضه الجديدة بعين الاستصغار .

زرع في عامه الأول قمحا فكان المحصول جيدا فطمع في الزيادة غير أن الأرض لم تسعفه بطلبته لانها كانت تتفاوت في الخصوبة فلا تصلح جميعها لزراعة القمح فعول على ايجار أراض أخرى تصلح لذلك ففعل الا ان ذلك لم يرق في عينه أيضا فكان يشكو من بعد الأرض وصعوبة النقل ففكر في نفسه قائلا :

لو كنت اشترى قطعة مستقلة خارجة عن نطاق المشروع فأبني عليها ضيعة صغيرة لكان لى من وراء ذلك فوائد جمة » وكانت

هذه الفكرة ماثلة بذهنه يفكر بها من حين لآخر . ثم سار على هذه الوتيرة وهو يستأجر أرضا ويزرعها قحما مدة ثلاثة أعوام وكان الدهر موافقا له فربح أرباحا وفيرة لجودة المحصول الا أن ذلك كله ما كان ليقلل من طمعه بل كان يزداد تدمرا كلما فكر في المال الذي يصرفه للمؤاجر واتفق أن أجر في العام الثالث قطعة من الارض من بعض القرويين هو وأحد التجار ثم وقع بينهما وبين أصحاب الارض منازعات أدت الى التقاضي واسفرت عن خسارتهما فتذمر باهوم وقال في نفسه « كل ذلك ما كان ليقع لو أن الارض كانت لي خاصة »

ومن ذلك الحين أخذ يبحث عن قطعة أرض للشراء فأوقعته المقادير في قطعة صالحة أراد صاحبها أن يبيعها عاجلا تخلفها من عشر أحاق به وكانت الارض تبلغ مساحتها ١٣٠٠ فدانا فصلها باهوم بمبلغ ١٥٠٠ روبل يدفع نصف ثمنها فورا ويكتب على نفسه وثيقة بالباقي . وقبل أن يتم البيع بأيام مر عليه بعض التجار وطلب منه علفا لفرسه فاحتفى باهوم به ودعاه الى تناول الشاي معا وجلسا يتحدثان فسأله باهوم من أين هو آت فاخبره أنه آت من أرض بعيدة تابعة لقبائل البشكير حيث اشترى لنفسه هناك ثلاثة عشر ألف فدانا من الارض بمبلغ لا يزيد عن ألف روبل فدهش باهوم



واستزاده الخبر فقال « وما على المرء الا أن يتودد الى الرؤساء
بهدايا فيمنحونه كل ما يطلب . وقد اشتريت لهم ملبوسا وسجادة
وعلبة من الشاي وبعض النبيذ وهدايا أخرى كلفني مجموعها نحو
مائة روبل وبهذه الوسيلة أكرمني الرئيس بأن تنازل عن ثمانين
كوبكات في ثمن الفدان الواحد » قال ذلك وأخرج صك المبايعة
يريه لباهوم وهو يقول : « ان موقع الارض قريب من النهر ومما
يزيدها أهمية انها بكر لم تستغل بعد فافتن باهوم بأقوال الرجل
ولم يتمالك عن استزادته الحديث والالحاف عليه بالسؤال فأجابه
الرجل « إن هؤلاء القوم يملكون من الارض ما لا يقع تحت حصر
ولا عدوهم على جانب عظيم من السذاجة وبلادة الطبع ليس
للارض عندهم أدنى قيمة » فأطبق خاتم الحرص على قلب باهوم
وناجى نفسه قائلاً : أنا الآن أملك ألف روبل فأى شيء يجبرني
على شراء قطعة من الارض مساحتها ١٣٠٠ فداناً بينما يمكنني شراء
عشرة أضعاف هذا المقدار بنفس المبلغ دون أن أثقل كاهلي بالدين »

لم يتردد باهوم في الامر لحظة واحدة بل ما كاد الرجل يفارق
الضيعة حتى كان هو وخادمه على الطريق الموصلة الى قبائل البشكير
ليتحقق الامر بنفسه وبعد مسيرة بضع ساعات حط رحاله في

أحدى القرى ليشتري صندوقاً من الشاي وبعض النبيذ ومهدايا
أخرى كما أوصاه الرجل ، ثم واصل سيره حتى انتهى الى مكان
القبيلة بعد أن قطع مسافة لا تقل عن ثمانمائة ميل فوجد الامر
كما وصفه الرجل ورأى أن القوم يسكنون الخيام بالقرب من مراعي
فسيحة يخرقها نهر عظيم وجل معيشتهم على اللحوم ومستخرجات
الالبان ولا يعمنون بزراعة الارض وغرسها ، والنساء هن اللواتي
يقمن بكل الاعمال . أما الرجال فلام لهم الا الأكل وشرب الشاي
والضرب على القيثارة وكلهم أقوياء البنية صحاح الاجسام يقضون
فصل الصيف باللهو واللعب ولا يباشرون فيه أى عمل من الاعمال
وهم على درجة عظيمة من السذاجة وبلادة الطبع ولا يعلمون من
الروسية حرفاً واحداً وانما يتكلمون بلغة خاصة بهم ، ومن عاداتهم
الجميلة ، الكرام وفادة الغريب ، اذ ما كاد يقع نظرهم على باهوم حتى
خرجوا من خيامهم والتفوا حوله صفاراً وكباراً يتأملون وجهه وكان
بينهم رجل يتكلم بالروسية فتوسط بينه وبين قومه وسأله عن
قصده فأخبره باهوم إنه جاء ليصيب عندهم بعض الارض ففرحوا
بذلك وأخذوا بيده الى أحدى الخيام الكبيرة حيث أجلسوه على
وسادة وثيرة وقدموا له أعز ما لديهم من المأكول والمشرب وبعد
الانتهاء من الطعام قام باهوم الى عربته وأخرج ما كان لديه من

المدايا ووزعها عليهم بالتساوي فارتسمت على وجوههم أمارات
البشر والسرور ، واخذوا يتكلمون فيما بينهم مدة طويلة وأخيراً
أشركوا الترجان في الحديث فالتفت هذا الى باهوم وقال له : « قد
سر القوم من هديتك أيما سرورهم ويشكرونك كثيراً على هذا
الصنيع ومن عادتهم اكرام الضيف بكل ما في وسعهم فاطلب ما تريده
منهم لقاء هديتك فانهم لا يتأخرون لحظة واحدة عن اسعافك
بمرغوبك » فأجابه باهوم : « جل رغبتى هو أن أصيب عندكم قطعة
من الارض لزراعتها واستثمارها لان الارض عندكم خصبة للغاية »
فأخبرهم الترجان بما يقول فنادوا الى حديثهم ثانياً وكان باهوم
يجعل لغة القوم وانما رأيهم يتسمون ويضحكون ثم التفت اليه
الترجان قائلاً : يقولون انهم سوف يعطونك بكل سرور قدر
ما تطلب من الارض فما عليك الا أن تشير بيدك الى قطعة الارض
التي تريدها لنفسك فتكون لك » وما كاد الرجل يتم حديثه حتى
قامت ضجة بين القوم فسأله باهوم عن جلية الامر فأخبره الوسيط
أن القوم قد انقسموا الى فريقين فريق منهم يريد ألا يبت في
الامر حتى يحضر الرئيس وآخرون يخالفونهم في الرأي

و بينما هم في جليتهم وضوضائهم اذ برجل ضخم الجثة عريض

الاكتاف يلبس قبعة كبيرة من فرو الذئب قد دخل من باب
الحيمة فوجم القوم وسكتوا كأنما على رؤسهم الطير وقد قلموا
اجلالا شأن القادم واكبارا لأمره فاخبره الترجمان أن القادم هو
رئيس القوم فقام باهوم مسرعا وأحضر له نصيبه من الهدية وهي
خمسة أرطال من الشاي وبعض الثياب النفيسة فتقبلها الرئيس
شاكرا وجلس في صدر المكان والتف القوم حوله يحدثونه بشأن
باهوم فإشار إليهم بالسكوت ثم التفت إليه مخاطبه بالروسية : «
أخبرني القوم بشأنك وما كنت لأرد لك طلبا فاختر القطعة التي
ترضاها لنفسك فإن لدينا كثيرا من الأرض كما ترى » فقال باهوم
في نفسه « كيف أقبل منه ذلك بمجرد القول بلا قيد ولا شرط
الا يجوز أنهم يندمون في المستقبل فيرجعون ما وهبوه لي من
الأرض !! » ثم خاطب الرئيس قائلا : « أقدم لكم جزيل الشكر
علي هذا الأكرام ولكن ألا يجدر بنا أن نستوثق الأمر بحجة أو
سند فإن الأعمار بيد الله والمرء لا يأمل أن يخلد طول الدهر الا
يجوز أن يأتي بعدكم خلف لا يرضى بعمالكم فينازعنا في الأرض »
فاجابه الرئيس : « إنك محق فيما تقول وسوف يكون الأمر كما
تريد » فقال باهوم « بلغني ان أحد التجار اشترى منكم من عهد
قريب قطعة من الأرض وأخذ عليكم عقداً بالبيع وأنا أحب أن

تعاملوني بمثل معاملته »

فاجابه الرئيس حبا وكرامة عند ما يتم الاتفاق نكتب عقدا
بذلك ثم نسجله في محكمة البلدة

فسأله باهوم . « وكم يكون الثمن » : فأجاب الرئيس بقوله :

ان الثمن عندنا محدد لا يتغير فاننا نأخذ الف روبل عن اليوم (الكامل)

فلم يفهم باهوم ماذا أراد بقوله اليوم الكامل فسأله مستفهما .

« ماذا تعنى باليوم الكامل وكم فدانا يكون » فأجاب الرئيس :

« نحن لانستعمل المقاييس في مسح الارض وانما نقدرها بالسير

فيها يوما كاملا وثمان الارض التي يقطعها المرء مشيا على أقدامه

يوما كاملا هو الف روبل « ففرح باهوم وصاح قائلا : ولكنني

اقطع في اليوم أرضا كبيرة للغاية » فأجاب الرئيس « كل ما تسير

على قدر جهدك يكون ملكا لك على شرط الرجوع قبل غروب

الشمس فاذا غربت الشمس ولم ترجع تخسر جميع ما تدفعه من

المال » فقال باهوم . « ولكن كيف السبيل الى معرفة الارض التي

اقطعها ؟ » فأجاب قائلا :

- ان ذلك سهل ميسور عليك أن تختار لنفسك بقعة من

الارض تسير منها . وعند كل ثنية من الارض تحفر حفرة صغيرة

تجعل بجانبها كومة من التراب بفأس صغير يكون معك لهذا الغرض

وعند الانتهاء فنصل نحن تلك العلامات بحرارة دائرة الأرض التي تقطعها
في اليوم ولك مطلق الحرية في أن تسير في الأرض كما تريد على
شرط الرجوع قبل غروب الشمس
فارتاح لذلك باهوم وتقرر أن يبدأ في السير صباح ذلك اليوم
ثم أكملوا يومهم في الحديث والنادمة حتى إذا أقبل الليل فرشوا له
فراشا وثيرا وتركوه في الخيمة لينام فيها ليلته بعد أن وعده الرئيس
بأن يوافيه صباحا قبل بزوغ الشمس



رقد باهوم طول ليلته وهي يبني لنفسه التصور والملاهي
متقلبا على فراش الآماني والأحلام دون أن يغمض له جفن أو
يكتحل بنوم وقبيل الفجر أخذ التعب منه مأخذه وقد تغاب عليه
النماس فأخذته سنة من النوم ثم رأى فيما يراه النائم أن الرئيس
أقبل عليه ينتظره على باب الخيمة فخرج إليه يسأله عن جليلة الأمر
فوجد أن القادم ليس الرئيس وإنما هو الرجل التاجر الذي أرشده
إلى أراضي البشكير فتقدم منه وقد هم أن يسأله متى حضر وإذا
به يري في وجهه صورة الرجل القروي الذي أقبل إليه في قرية
الأولى من جهة الفولجا فهم أن يصافحه ويترحب به وإذا به يري
في وجهه صورة إبليس اللعين في شكل بشع ومنظر مريع فأشاح

بوجهه الى جهة أخرى فرأى جثة انسان ملقاة على مقربة منه
فاتقرب من الجثة ليتأمل وجه صاحبها ولكنه ما كاد يقترب منها
بعض خطوات حتى ارتد مذعورا لأنه رأى فيها صورة نفسه ثم
قام من نومه وهو على هذه الحالة ممتقع اللون ترتعد فرائصه فرقا
ونظر الى باب الخيمة فلم ير غير حمرة الشفق فسلم أن ستر الليل
أوشك أن يتمزق فلا يمضي القليل حتى يسفر الصباح عن وجهه
فهب من فراشه وهو يقول: ما أكثر ما يرى الانسان في نومه
لاشك ان مارأيته هو اضغاث أحلام . وها قد قرب الصبح والقوم
نيام بعد « ثم ذهب مسرعا نحو خادمه الذي كان نائما في العربة
فأيقظه وأمره بالاستعداد ثم أسرع نحو القوم يوقظهم فصحا القوم
واجتمعوا في خيمته ولم يلبث ان وافاهم الرئيس وكانت الشمس قد
قاربت البروغ فأمر باحضار طعام الافطار وعرض على باهوم تناول
بعض الشاي فأبى قائلا: « لم يبق متسع من الوقت فلنبدا بالعمل
ان كنا فاعلين »

وعند ذلك وقف القوم استعدادا للمسير ثم ركب بعضهم العربات
وامتطى اخرون متون الجياد وركب باهوم عربته وسار في طليعة
القوم مع الرئيس وبعد أن ساروا قليلا وصلوا الى تل صغير يشرف

على سهل فسيح الارحاء وكانت الشمس قد بدأت في البروغ فوقف
القوم وتقدم الرئيس قائلاً وقد أشار بيده الى السهل : « انظر كل
هذا السهل الفسيح ملك لنا ولك أن أن تسير فيه أنى تشاء » وبعد
أن قال ذلك خلع قبعته ووضعها على الارض قائلاً . « فلتكن هذه
القبعة علامة لمبدأ سيرك فابتديء في السير من هنا ثم ارجع اليها
ثانية بعد أن تم دورتك وكل الارض التي تمشي فيها تكون ملكاً
لك »

ولم يتمالك باهوم من اظهار الفرح والسرور عند ما رأى ذلك
السهل الفسيح وتيقن انه خصب يصلح لزراعة كل أنواع الحبوب
ثم أسرع من وقته فوضع ماله من النقود وهو الالف روبل في
قبعة الرئيس ثم طرح رداءه الخارجى وشمر عن أكمام قميصه ليكون
خفيف الحمل في الـ تمنطق بسير من الجلد شده على وسطه
وحمل على ظهره حصيب صغيرة فيها بعض الزاد وما يلزم لشربه ذلك
اليوم ثم أمسك بالفأس والتفت يمنة ويسرة ليختار له وجهة للسير
وبعد أن وقف برهة ناجى نفسه قائلاً . كل الارض سواء ولكن
يحسن بي أن أسير نحو الشرق » قال ذلك وحمل فأسه على ظهره
وسار يتبع مشرق الشمس

•••

وبعد أن قطع نحو ألف ياردة وقف قليلا فحفر الأرض ثم جعل بجانبها كومة من التراب علامة لو صوله تلك البقعة وكان يمشي مشيته الاعتيادية لا يميل ولا يعدو فقطع بذلك ألف ياردة أخرى وجعل علامة أخرى ، ثم مشى قليلا ونظر الى التل حيث كان القوم فلم يتبينهم جيدا لانه كان قد ابتعد عنهم كثيرا بمسافة لا تقل عن الثلاثة أميال كما قدرها باهوم في نفسه وكان الوقت ضحي فابتدأ يشعر بحرارة الشمس فقال في نفسه « قد قطعت ربع ما يجب أن أقطعه في اليوم وعلى أن أتم المربع في باقى اليوم ولكن لا يزال أمامي متسع من الوقت » قال ذلك وخلع نعليه وربطهما في وسطه ليرتاح في المشى ثم سار في وجهته الاولى وكان كلما سار وجد الأرض أخصب والتربة أجود . فقال في نفسه . « انه من الحمق ترك هذه البقعة الخصبية ماعلى لو سرت ثلاثة أميال أخرى » فسار فيها وقد جدد الحرص في نفسه همته الاولى حتى أخذ التعب منه مأخذه فنظر واذا بالشمس في كبد السماء فعلم أن النهار قد انتصف فوقف ريثما جعل علامة لو صوله تلك البقعة ثم جلس للغداء فأكل بعض الزاد وشرب قليلا من الماء وانتصب واقفا وهو يقول . « يجب أن أسير لأن الراحة تجلب النعاس واذا نمت قليلا لا آمن من الخسارة » فسار من وقته وقد أراد أن يعطف الي وجهة أخرى اتماما للمربع

غير أنه أبصر على مقربة منه أرضا منخفضة فقال في نفسه . « هذه الأرض تصلح لزراعة الكتان وما كنت لأترك هذه الفرصة » قال ذلك ومشى حولها حتى إذا ما أتم مسيره وقف عند نهايتها وجعل علامة لوصوله تلك البقعة أيضا . ثم نظر الى التل فرأى أن حجمه قد صغر جدا فعلم أنه قطع كثيرا وأنه ان لم يسرع في الرجوع خسر كل آماله . فأسرع لوقته وهو يقول . « ان الأرض التي قطعتها لانسبة بين طولها وعرضها اذ ان الطول سوف يربو كثيرا على العرض ولكن رغم ذلك فقد أصبحت أملك قطعة فسيحة من الأرض » ثم وقف برهة يحفر الأرض بسرعة زائدة لتكون علامة وصوله تلك الجهة وبعد أن أتم عمله انعطف نحو التل يريد الرجوع مسرعا الا أن كثرة المشى وشدة الحر انهكتاقواه فصار يمشي بصعوبة ويتهدى في مشيته كالشيخ الضعيف بعد أن كان يهرول أما قدماه فقد تشققتا وسالت الدماء منهما لكثرة ما اصطدم أثناء مشيه بالحجارة والحصى وهو لا يعي وتخاذل ساقاه وضعفتا عن حمله اذ كان في حاجة شديدة الى بعض الراحة ولكن انى له ذلك والشمس آخذة في الغروب شيئا فشيئا وكان ما عليه من الحمل يضايقه كثيرا فرمى حقيبته أولا ثم نعليه وخلع بعد ذلك صدرته وهكذا صار يرمى ما عليه من الملابس حتى لم يبق عليه سوى

القميص والسروال وأمسك بيده الفأس ليتوكأ عليه وسار يعدو بكل قواه واستمر مدة على هذه الوتيرة ثم نظر الى الشمس فعلم أنها لا تلبث أن تغرب ففزع لذلك كل الفزع وقال في نفسه. « ربه ماذا العمل بخيل لي أن الطمع سيفسد على كل أمالي » غير أنه ما لبث أن تشجع قائلاً « عار على أن أرجع عن عزمي فاتقاعد عن السير بعد أن قطعت هذه المشقة الطويلة » فجمع نفسه وسار يمشي بكل قوته حتى قارب التل فسمع صياح القوم من بعد فتشجع ثانية وأخذ يعدو بكل ما فيه من قوة وعزم وكانت الشمس قد قاربت الغروب فلا تمضي بضع دقائق حتى تختفي عن الانظار الي ما وراء الشفق الاحمر ، الا ان باهوم كان في ذلك الوقت على مسيرة بضع خطوات من سفح التل يسمع صياح القوم ويميز أصواتهم ويرى قبعة الرئيس عند ذلك تذكر ما رآه في الحلم فقال في نفسه : « حقا ان الارض التي قطعتها فسيحة الأرجاء بعيدة المدى ولسكن هل كتب لي في لوح المقدور أن أعيش عليها » ثم عاد فتذكر أنه على قيد خطوات من مبدأ مسيره وانه ما عليه الا أن يجمع عزمته ثانية فيصل اليها ويملك الارض . فجددت هذه الاماني في نفسه ميت الأمل فسار طورا يتهادى كالشيخ الضعيف وتارة يحبو كالطفل الرضيع حتى وصل سفح التل عند ذلك نظروا اذا بالشمس

قد غربت وأصبح السهل في ظلام حالك فتقطعت نياط قلبه وصاح
يقول : «أواه قد ذهبت أتماني أدراج الرياح » الا أن القوم لم
ينقطعوا عن صياحهم وندائهم فتذكر أن مكانهم أعلى من مكانه
لانه مازال في سفح التل وان الشمس لا تزال ظاهرة لديهم فتتنفس
الصعداء وجمع كل ما لديه من قوة وعزم وأخذ يصعد التل فوصل
القمة وكانت الشمس لا تزال ظاهرة لديهم ثم عاد فتذكر ما رآه في
الحلم فصرخ صرخة مزعجة وارتدى على الارض بالقرب من قبعة
الرئيس : وقد وضع يده عليها ، فقال الرئيس «انه سميد الحظ فقد
أصاب قطعة كبيرة من الارض» ثم أسرع خادم باهوم ليرفمه عن
الارض ولكنه ما كاد يرفمه قليلا حتى سال الدم من فمه وارتدى على
الارض جثة هامدة . فوجم القوم وأطرقوا برؤسهم الى الارض
وقد ارتسمت على وجوههم الكآبة والحزن
وقام خادم باهوم فحفر سيده قبرا يبلغ طوله ست أقدام
وكان ذلك كل نصيبه من الارض

— ٤ —

ابن العراب

بسم الدهر ذات صباح لقروى فقير فرزق طفلا فرح به
فرحا شديداً وعلق عليه آمالا كبيرة وأسرع لوقته نحو جاره العزيز
مستبشرا فأخبره بالأمر وطالب منه أن يكون عرابا للطفل. ولكن
جاره العزيز أنف من ذلك ورده خائبا فانصرف المسكين يتعثر
بأذيال الخيبة والفشل وقصد جاره الثاني فالثالث ثم الرابع وهكذا
حتى طرق أبواب القرية على غير جدوى لالذنب أتاه أو لجرم اقترفه
سوى أنه فقير معدم

أظلمت الدنيا في وجهه أثر هذه الصدمة الشديدة فسخط
على الدهر وتبرم من جده العاثر ثم خرج من قرية موليا وجهه
شطر القرية المجاورة بغية أن يجد فيها من لا يأنف من أن يكون
عرابا لمولود فقير فسار المسكين (في طريقه) تتساوبه الاحزان
وتتقاسمه المصوم والاشجان لا يلوى في طريقه على شيء

وما كاد يبلغ نصف الطريق حق استوقفه رجل طارحه السلام
وسأله عن وجهة مسيره . فأخبره بما وقع له ذلك اليوم ثم ختم
-ديته قائلا اواني الآن ذاهب الى القرية المجاورة عساني أجد



رجلا لا يأنف من أن يكون عرابا لطفلي فابتسم الرجل المجهول
وقال أنا أ كفيك مؤونة البحث والتعب دعني أكون عرابا لولدك .
ما سمع القروي المسكين هذه الكلمات التي نزلت على قلبه بردا
وسلاما حتى تهلل وجهه بالبشر وتمتم بعض كلمات يشكر بهامعروف
الرجل ولكن عاد فعبس ثانية كمن تذكر أمرا فاته فقال وصوته
يهدج حزنا

- آه يامولاي لم تنفجج اللازمة بعد . قل لي بريك . أين أجد
امرأة طيبة القلب نظيرك تقبل أن تكون عرابته
- لا تحزن باصاح فأنا أرشدك الى امرأة صالحة تقبل ذلك عن
طيب خاطر . اذهب الى المدينة وهناك في الساحة العمومية تجد
منزلا مبنيا بالآجر في مدخله حانوت فاسأل عن صاحب هذا
الحانوت وعند ما تقابله أخبره بالامر واطلب منه أن تكون ابنته
عرابة لولدك فانه لا يردك خائبا

فهز القروي كتفيه يئس كمن يرتاب في أمر لا يرجوه ثم
خاطب الرجل قائلا :

- أمثلي يطلب من تاجر غني أن تكون ابنته عرابة لابني
لا ريب في أنه سوف يهز أبشائي ويزدريني اذا تجاسرت على مثل
هذا الطلب

فأجابه الرجل بملء السكينة

- لاتدع اليأس يتطرق الي قوادك بل كن واثقا با نه سيعجيب
طلبك فاسرع يا عزيزي قبل فوات الوقت وغدا صباحا تجدني
حاضرا في حفلة التنصير

فقفل القروي راجعا الى قريته وامتنطى فرسه وقصد المدينة
يبحث عن حانوت التاجر وعند ما اهتدى اليه وترجل عن فرسه
قابله التاجر بوجه باش وسأله عن حاجته فاجابه والحجل يكاد يعقد اسنانه
اعلم ياسيدي أنه ولد لي في هذا الصباح طفل وقد جمت
أرجوك أن تفضل بأن تكون ابنتك عرابته . فسأله التاجر

- ومتى تكون حفلة التنصير ؟

- غدا صباحا

.. حسن - سوف تكون ابنتي عندك غدا فاذهب مطمئن البال .
وفي اليوم الثاني حضر الرجل المجهول وحضرت ابنة التاجر
وبعد أن أتم الكاهن تنصير الغلام انصرف الرجل المجهول ولم
يعلم عنه شيئا بعد ذلك اليوم



مضت أيام وشهور **ك**بير أثناءها الطفل وزرع فأدخله
والداه مدرسة القرية فتعلم فيها كل ما يمكن أن يتعلم وخرج منها

شابا متين العضل قوى البنية تلوح على وجهه أمارات الجهد
والإقدام

جاء عيد الفصح فأشرقت منازل الفرية وأكواخها بالانوار
وخرج القرويون زرافات ووحدانا وعلى وجوههم سيماء البشر
وأمارات السرور. أما طفل الأمس وفتى اليوم فكان يسير وحيدا
منفردا مبتعدا عن الضجيج يفكر في عرابه المحبوب ذلك الرجل
الطيب القلب الذي رضى بكل ارتياح أن يكون عرابا له في الوقت
الذي أنف أهل قريته من هذا الأمر. ثم ناجى نفسه قائلا:

- آه لو استطعت مقابلة ذلك الرجل الطيب إذن لكنت
أوقف كل حياتي على خدمته واحترامه

ما كاد يصل من حديث نفسه الى هذا الحد حتى التفت
الى يمينه واذا به يرى شيخا يدب على عصاه تلوح عليه الهيبة
والوقار وكان يدنو منه باسماء وهو يقول.

- تقدم يا بني ولا توجل أما كنت منذ هنيئة تحدث نفسك
مستفهما عن مقر ذلك الرجل الذي رضى أن يكون عرابا لك في
طقواتك فهاهي المقادير جمعتك به لتقدم له تحية عيد الفصح

وعند ذلك ارتبك الشاب لهذه المباغته ولكنه - رعان ما
تمالك نفسه وتقدم الى الرجل باسماء وشكره على معروفه السابق وقدم

له تحية العيد بأن قبله ثلاثا كما هي العادة ثم خاطبه قائلا .
- كم أكون مسرورا ياسيدي اذا شرفتنى بمعرفة اسمك ومكان
اقامتك لا قوم نحوك بما يجب لابن نحو عرابه
- لا سبيل الى معرفة اسمي اذ لا يهملك ذلك وأما اذا رغبت
في أن تعلم مكان اقامتي فما عليك الا أن تذهب غدا الى هذه الغابة
المجاورة وتمشي فيها حتى ينتهي بك المسير الى ساحة صغيرة محاطة
بالاشجار الباسقة فتقف في ذلك المكان قليلا تتأمل ما حولك فترى
طريقا ينتهي بك الى قصر شاهق تحيط به حديقة غناء هذا هو
منزلي . في فناء هذا القصر تجدني في انتظارك

وما وصل الرجل من حديثه الى هذا الحد حتى رفع الشاب رأسه
ليتأمل وجه عرابه جيدا واذا به لا يرى أمامه سوى الحقول الخضراء
وعلى بعد منه يسمع ضجيج أهل القرية في سرورهم وابتهاجهم
بالعيد . فقفل راجعا كمن هو في حلم لا يصدق ما رآه وأزمع المسير
الى الغابة صباح ذلك اليوم ليتأكد صحة ما سمعه وراه



وما كادت الشمس تشرق حتى كان الشاب في طريقه الى الغابة
يعدو في مشيته ونفسه تنزع الى معرفة سر الرجل حتى اذا انتهى
به المسير الى الساحة التي وصفها له عرابه وقف يتأمل برهة فرأى



طريقا غاية في الابداع تحف به الاشجار على الجانبين وينتهي بقصر
شاهق محاط بستان جميل يتلألأ في تلك البقعة النظرة تلالؤ
الكوكب المنير

عند فناء هذا القصر البديع قابله عرابه بوجه باسم ومشى به الى
الحديقة أولا ثم القصر ثانيا متنقلا به من جهة لاخرى يريه مقاصير
القصر ويطلعه على محتوياته وكان كلما مشى خطوة زاد تعجبه من
محتويات القصر وفرشه الثمين الى أن انتهى بهما المسير الى غرفة
مقفلة فوقف العراب أمامها وأشار إليها قائلا : « قد انتهينا الآن
من طوافنا وقد أطلعتك على كل ما في القصر ولك أن تمرح فيه
كيف تشاء وانى شئت ولكن حذار أن تدخل هذه الحجرة »

وما كاد العراب يفرغ من كلامه هذا حتى اختفى عن الانظار
ولم يظهر له أثر بعد ذلك . ففضى الشاب ردحا من الزمن وقد
طابت له السكنى في القصر فماش هنيء البال قرير العين مدة تقرب
من الثلاثين عاما مرت عليه كحول واحد لا غتباطه وسروره

مرت عليه تلك المدة الطويلة وهو في مقام كريم وعيشة
راضية ثم تسرب اليه الملل شيئا فشيئا فصار يطوف القصر طول
يومه يبحث عن شيء جديد يسلى به النفس واذا به واقف
ذات يوم أمام الغرفة المقفلة ثم تذكر وصية عرابه فتنازعه عاملان



عامل الفضول وعامل احترام الوصية . وأخيرا تغلب عليه الفضول
فتتح الباب ثم وليج الغرفة وتقدم فيها بضع خطوات فرأى نفسه
في بهو فسيح يتوسطه عرش كبير يصعد اليه المرء ببضع سلمات
فتقدم نحوه ورقبته ثم جلس يتأمل ما حوله فوقع بصره على
صولجان بديع الصنع بالقرب منه فمد اليه يده ليمسكه وما كاد الصولجان
يستقر بين أصابعه حتى سمع ضجة وجلبة واذا بأركان الغرفة تهتز
ثم ارتفع جدران البهو فنظر واذا به يرى العالم أجمع منبسطاً أمامه
وهو ينظر اليه من عل، نظر امامه فرأى البحار والمحيطات تمخر
فيها المراكب وتشق عباها السفن ثم التفت يمنة فأبصر عوالم
غريبة وأجناسا مختلفة من البشر يخالفونه في الشكل واللباس ثم
ادار وجهه الى جهة أخرى فرأى اناسا يقاربونه في شكاهم ولباسهم
يتكلمون بلغة يفهمها فلم أنهم روسيون مثله فتأمل وجهه وحدثته
نفسه أن يبحث عن أهله وقربته بين مئات من القبرني وما كاد
يهتدي اليها حتى خطر بباله أن يتفقد حقل والده فصوب نظره نحو
الحقل فرأى أكداس الحصيد منتشرة في طول الحقل وعرضه على
أهبة النقل ثم أصر رجلا يتسلل الى الحقل بعربته فظن أن والده
جاء ليلا ليحمل الفلال الى مخازنه ولكنه لم يكن يتبينه حتى علم أنه
(واسيلي كوندارتشوف) جاء متسترا باثواب الليل ليسرق بعض

القمح . وعند ذلك انتفض الشاب غضبا وصاح بأعلى صوته قم يا أبت فان اللص يسرق القمح من مزرعتك . وكان الوالد اذ ذاك نائما على بعد من المزرعة فقام من فوره ينفض عن نفسه غبار النوم ويناجي نفسه قائلا : « قد نبهني صوت هاتف يقول ان لصا يسرق الخنطة من الحقل فسوف اذهب الى هناك لاتحقق الأمر بنفسى » قال ذلك وامتطى فرسه ثم أسرع للحقل وهناك رأى اللص (واسيلي) فأمسك بخنقه وساقه الى السجن

عند ذلك اطمان بال الابن وصوب نظره الى مدينة القرية ليتفقد حال عراته ابنة التاجر فعلم أنها تزوجت من رجل تاجر ثم نظر فرآها نائمة ورأى زوجها قد قام الى الباب متسللا ثم خرج يمشى في طرقات المدينة ليلا فاتمه النظر فرآه قد دخل عند امرأة أخرى علم أنها خليلته ذهب اليها في تلك الساعة ليخون امرأته فاستفزه الغضب لهذا الامر وصاح بعرايته ينبها قائلا :

« ألا انتبهى أيتها الغافلة فان زوجك يسلك طريق الغواية » فقامت المرأة من نومها فزعة وتلست مكان زوجها فلم تجده فتحقت صدق قول الهاتف فلبست ثيابها بسرعة وذهبت تبحث عنه الى أن اهتدت اليه وهو بين أحضان خليلته فشب بينه وبينها عراك عنيف ورجعت الى بيتها مفضية بعد أن أوسعت زوجها شتا وتويخا .

وعند ذلك اطمأن الشاب وخطر بباله أن يتفقد حال أمه فصبوب نظره نحو البيت فأبصر لصا يحاول كسر الصندوق الذي اعتادت أمه أن تضع فيه أمتعتها ووجد أمه نائمة بالغرفة المجاورة فرآها قد استيقظت على أثر صوت الكسر ورأى أن اللص قد أمسك بيمينه فأسأ يريد أن يهوى به على رأس أمه ليقتلها . فلم يتمالك الولد أن هوى بالصولجان على رأس اللص فوق لساعته قتيلا عند ذلك اهتز اركان العرش وسمع صوت الجدران تنزل ثانية ثم نظر واذا بالغرفة قد عادت كما كانت وبعد برهة فتح الباب ودخل عرابه متقدما نحو العرش فأخذه بيده وأنزله منه وهو يقول :

«هاأنذا أراك قد خالفت أمري وارتكبت معصية الدخول الى الغرفة مع تحذيري اياك ثم اتبعتها بخطيئة أخرى عندما علوت العرش وتداخات فيما لا يعنيك وأخيرا ختمت هاتين المعصيتين بجرم أفظع اذ قتلت نفسا بشرية ولوتسنى لك أن تمكث هنا نصف ساعة أخرى لكنت تلف نصف العالم»

قال الرجل هذا القول وأمسك بيد الشاب وقاده ثانية وانكشف العالم أمامها مرة أخرى ثم أشار العراب بيده قائلا : « انظر ماذا قدمت لوالدك من اساءة كنت تظنها مكرمة . هاهو واسيلي اللص

قد أمضى سحابة عامه بين جدران السجن مهد الشر والموبات
فازداد غلظا وشراسة وكانت فاتحة شروره بعد خروجه من السجن
أن سرق فرسين لوالدك وها هو الآن يضرم النار في أجران
القمح انتقاما لنفسه من أهلك . كل هذه المصائب أنت السبب في
جلبها لايك » فنظر الشاب أمامه فرأى أكوام القمح تحترق فرفع
قلبه اضطرابا ولم يتمكن من ادامة النظر لأن العراب التفت الى
جهة أخرى وأشار قائلا : « انظر ها هو زوج العرابة مضى عليه
عام بعد هجر زوجته ولم يقطع بعد عن شروره وآثامه أما خليلته
فقد زادت انغماسا في شهواتها وها هي عرابتك تندب سوء حظها
وتقضي ليلها تعاليج همومها بالمسكرات بغية أن تجد الصبر والسلوان
فهل رأيت صنعك لعرابتك والآن انظر لترى ما قدمته يدك
لامك المسكينة » فنظر واذا به يرى والدته في كسر دارها قد أثقلت
ظهرها الموم وهي تقاسي الأمرين من تبيكيت الضمير وتندب
حظها قائلة « ويح نفسي ما أشقاها لقد كان الاولى بي أن يقضى
على اللص في تلك الليلة المشؤمة من أن يحماني تلك الخطيئة » .
ثم أشار اليه عرابه أن أنظر فنظر واذا به يرى دار السجن وأمامها
ثلة من الجنود فقال له : « أترى هذا الرجل أنه سفك دماء عشرة
من الأبرياء وكان لا يحيص له من أن يكفر عن سيئاته بنفسه ولكنك

عجلت عليه بالقتل فحملك جريرة دمه ودم الذين جار عليهم القتل
فهل رأيت الآن نتيجة عملك وما جلبته لنفسك بطيشك ونزقك.
أمامك الآن ثلاثون عاما تقضيها في هذا العالم تضرب بقدمك
في فسيح ارجائه وتعمل جهدك على تكفير ذنبك واذ لم تتمكن من
تكفير ذنوبك قبل انقضاء هذه المدة تنال من الجزاء ما كان سيناله
هذا اللص « فسأله الشاب وقد أكمدا لونه وارتسمت على وجهه
علامات الخوف والجزع .

— ربك قل لي كيف أكر ذنوبي

فأجابه . ذلك ميسور لك اذا تلافيت من شرور هذا العالم
بالقدر الذي جلبته اليه وبذلك تكفر عن خطيئتك وخطايا
الاص ما

— وكيف السبيل الى محو الشر من العالم

— أنا مرشدك الي ذلك . قم الآن وسر في الارض نحو
المشرق وبعد مسير بضمة أيام تصل الى مزرعة فيها بعض رجال
فراقب ما يعملون ثم أخلص لهم النصيح بما تعلمته في سفرك وأتم
مسيرك نحو المشرق أيضا الى أن ينتهي بك المسير الى غابة كذا
وفيهما نجد كهفا يسكنه شيخ معتكف فقص على هذا الشيخ كل ما
تراه وتطه في طريقك اليه فهو مرشدك الى ما يكون فيه

تكفير ذنبك ان شاء الله

وبعد أن ودع الشاب عرابه سار يتبع مشرق الشمس كما أمره وهو يناجى نفسه بهذه الاقوال : « كيف يتسنى لي معحو الشر من هذا العالم ؟ وكيف يستطيع المرء ذلك دون أن يتحمل خطايا البشر وهل لأدواء الانسانية وشروورها علاج غير ذلك ؟ أخذ يفكر في ذلك طول طريقه عليه يجد حلا لهذه المشكلة ولكن على غير جدوى . وكان قد وصل الى مزرعة كبيرة ورأى القمح فيها ناميا وقد طالت سوقه ولم يبق على حصده الا القليل ثم لمح على بعد منه عجلا صغيرا يعدو في الحقل وقد طار وراءه بعض الرجال يطارذونه بغية اخراجه من الحقل قبل اتلاف سوق القمح ثم رأى في الطرف الآخر من المزرعة امرأة تمول وتصيح قائلة :

— يا للدهاية إنهم سوف يقتنعون العجل فلا يلبث أن يقع صريعا بين أرجل جيادهم . عند ذلك ناداهم ابن العراب بقوله : « ما هذا الحمق تنحوا عن العجل ودعوا المرأة تناديه فلا يكبح جماحه غيرها »

فأصغى الرجال لقوله وتنحوا عنه واقتربت المرأة من الحقل تنادى عجلها بقولها : « الى يا براونى) الى يا عزيزي الصغير » فوقف العجل قليلا يرهف أذنيه نحو الصوت ثم ما لبث أن عدا نحوها

وارتمى في أحضانها فرحاً

فاغتبط الرجال وفرح المعجل وعلى هذه الصورة الجميلة انحل
المشكل ففكر الشاب في نفسه يقول : « حقا إن الشر لا يعالج بمثله
وقد دلني الاختبار أن الناس يزيدون نار الشر اضطرابا كلما حاولوا
إخماده بالجبر والمسف . ها قد أطاع المعجل سيده باللين واللطاف »
ففكر في ذلك طويلا دون أن يهتدى إلى حل معقول وكان قد ترك
الحقل متما مسيرة حتى وصل إلى قرية صغيرة وما كاد يصل آخر
القرية حتى أخذ التعب منه مأخذه فتلفت يبحث عن مكان يرتاح
فيه ليلته فرأى منزلا صغيرا في آخر القرية فسار إليه وطلب أن يؤذله
بالمبيت تلك الليلة فاستقبلته صاحبة المنزل بالترحاب وأجلسته بالقرب
من الموقد ليستدفىء ثم أخذت تتمم ما كانت فيه من تنفيذ أثاث
المنزل وترتيبه وكانت قد أتمت كل عملها تقريبا ولم يبق عليها إلا
تنظيف مائدة الأكل استعدادا ليوم الأحد فمسحتها مسحا جيدا
ثم أحضرت خرقة قدرة تريد تنشيفها وما كادت تضع الخرقة على
المائدة حتى اتسخت ثانية فأعدت غسلاها ورجعت تنشيفها بالخرقة
عينها فاتسخت مرة أخرى . وكان ابن العراب يراقب عملها بكل
انتباه وأخيرا لم يتمالك من أن يقول لها : ماذا تصنعين ياسيديتي ؟
فأجابته : « ألا تراني أستعد للغد وقد أتممت كل عمل إلا هذه المائدة

فقد أعياني أمر تنظيفها ، فأجابها : عبثاً تحاولين يا سيدتي تنظيف المائدة بتلك الخرقه القذرة انما يجب تنظيف الخرقه أولاً ثم تمسحين بها وهي نظيفة » فامتثلت لقوله وتم الأمر كما تشتهي السيدة فشكرته على نصيحته وعند الصباح شكر حسن ضيافتها وسار في قصده حتى انتهى الى غابة رأى عند مدخلها بضع رجال يصنعون أطار المعجلات وعند ما اقترب منهم رأهم يدورون حول قطعة من الخشب دون أن يتمكنوا من احنائها فنظر الى قطعة الخشب فرأى أنها غير ثابتة في الكتلة التي يدورون حولها

فكانوا كلما داروا دار الخشب معهم . فتقدم منهم الشاب وطارحهم السلام ثم سألهم عما يصنعون فأجابوه

« ألا ترى إننا نضع اطارا للمعجلات وكثيراً ما حاولنا احناء هذه القطعة ولكن على غير جدوى » فأجابهم بقوله « كان عليكم أن تتأكدوا من ثبات الخشب في الكتلة أولاً ثم تشرعون في العمل وإلا تدور معكم كما تدورون » فعملوا بإشارته وتم الأمر على أحسن حال وأمضى الشاب ليلته معهم وعند الصباح قام يضرب بقدميه على الارض ثانية حتى وصل الى كلاً من الأرض فيه بعض الرعاة وقد انتشرت مواشيم ذات اليمين وذات الشمال فاقترب منهم فرآهم يحرقون بعض الأعشاب بغية اضرام النار ولكن النار ما كانت

لتشتعل حتى كانوا يرمون عليها بمض الاعشاب الندية فتخمد لوقتها
ثم أعادوا العمل بنفس الطريقة فأصابهم من الفشل ما أصابهم في المرة
الاولى فتقدم اليهم الشاب قائلا :

- أراكم أيها الرفاق تستعجلون بوضعكم الأعشاب الندية قبل
شبوب النار وانما عليكم أن تنتظروا ريثما تشب النار تماما فتضيفوا
اليها قدر ما تريدون من العشب

فعملوا بإشارته وتركوا النار حتى شبت تماما ثم أضافوا اليها
أعشابا أخرى فاشتعلت واستخدموها فيما يريدون. ثم أقام الشاب
بينهم ريثما استراح وقام يتمم مسيره ثانية مفكرا في كل ما صادفه في
طريقه وهو يحاول أن يجد له معنى ولكن لم يهتد الى شيء . وفي
اليوم التالي وصل الى أجمة أخرى وفيها أبصر الكهف الذي يسكنه
الراهب المعتكف فضرب عليه الباب فسمع صوتا ضعيفا يقول :

- من هذا الواقف على الباب

فأجابه الشاب : رجل مجرم أثقلته ذنوبه فجاء يكفر عنها
ففتح الباب وخرج منه شيخ عجوز أحنث الايام قوس ظهره
وسأله عن جلية أمره فأفصي اليه الشاب بكل ما وقع له في
بيت عرابه وأخبره كذلك بما رآه في المزرعة حيث كانت الرجال
أطارد العجل وكيف نصحبهم ثم ختم حديثه قائلا .

- ومن ذلك الوقت علمت أن الشر لا يدفع بالشر ولكن
لم أهد حتى الآن إلى الطريقة المثلى التي يجب اتباعها لدفع الشر فهل
لك يا سيدي أن ترشدني لذلك»
فأجابته الراهب :

- أمض في حديثك يا بني وأخبرني بما رأيته أيضا.
فعاد الشاب إلى حديثه وأحكى له ما رآه في بيت المرأة وقص
عليه أمر الرجال الذين كانوا يصنعون أطوار المعجلات ثم أخبره بما
وقع له مع الراهب

كل ذلك والراهب مطرق برأسه يصفي إليه جيدا وعند انتهاء
الحديث دخل إلى كهفه وعاد ثانية ويده فأس صغير كالذي يستعمله
الخطابون ثم قاده إلى وسط الأجمة وأشار إلى شجرة هناك ثم قال:
اقتلع هذه الشجرة من أصولها ثم اقطعها بالفأس إلى قطع ثلاث .
ففعل ابن العراب ما أمره الراهب وعند انتهاء العمل ذهب الراهب
إلى كهفه ورجع إليه بقطعة خشب مشتعلة وأمره أن يحرق بها القطع
الثلاث حتى تصير كلاً منها كالفضة السوداء وبعد أن فعل ذلك أيضا
أمره بفرس القطع المحروقة في الأرض حتى النصف
وعند انتهائه من العمل وضع الراهب يده على كتف الشاب
وخاطبه بقوله :

«أرى هذا النهر الصغير عند سفح الجبل عليك أن تنقل منه الماء بعمك لسقى هذه الأعواد الثلاث . اسق العود الأول كما علمت المرأة وأسق الثاني كما أشرت على صانعي المعجلات والثالث كما أشرت على الرعاة واستمر على سقيها وتعهدتها حتى ترى أن هاته الأعواد الثلاث تنمو وتينع وتصبح كل منها شجرة تفاح صغيرة عند ذلك تكفر عن خطيئتك وتعلم في الوقت نفسه كيف يمكن اقتلاع بذور الشر من جوانب الانسان»

وعندما انتهى الراهب من حديثه قفل راجعا الى الكهف وترك الشاب غارقا في بحار التفكير يضرب اخماسا لأسداس ويقلب وجوه الرأي عساة يهتدى الى معنى اسكل ما رآه وأخيرا لم يردأ من اطاعة أمر الراهب اطاعة عمياء كما أوصاه عرابه فصار ينقل الماء بعمه ويسقى الأعواد طول يومه حتى أعياه التعب وأخذ منه الجوع كل ما أخذ فسار الى الكهف ليطلب منه ما يسد به الرمق وليكنه ما كاد يدخل الكهف حتى رأى الراهب جثة هامدة فهاله الأمر وأسقط في يده لا يدري ما يصنع وأخيرا أتته روعه وأخذ ينقب في أطراف الكهف حتى اذا أصاب شيئا من الخبز الناشف أكله ونام ليلته بالقرب من جثة الراهب وعند الصباح قام الى فأسه وحفر قبرا للراهب بالقرب من الكهف وبينما هو في عمله رأى

جمعا من الناس جاءوا ليزوروا الراهب ومعهم بعض الزاد كما دعتهم
فأخبرهم بموته فأسفوا عليه وعاونوه في دفنه في الحفرة التي أعدها
له من قبل ثم ودعه الحاضرون بعد أن تركوا ما معهم من الزاد وقد
وعدوه بزيارته من حين لا آخر كما كانوا يزورون ساكن الكهف
سلفه ومن ثم اشتهر أمره بين سكان الجهات المجاورة للغابة بأنه لا
ينفك عن نقل الماء بفمه من النهر حتى الكهف رياضة للنفس وكبحا
لجراح الهوى فتقاطروا إليه من كل صوب للتبرك به ومعهم كثير
من الهدايا الثمينة فكان يبقى لديه الضروري منها ويوزع الباقي على
الفقراء والمساكين . وكان يمضي نصف يومه في نقل الماء وسقى
الأعواد والنصف الآخر في استقبال زواره العديدين
مضى عليه حولان لم ينقطع أثناءها يوما واحدا عن نقل الماء
وسقى الأعواد ولكنها كانت على حالها السابق لم تتغير مطلقا . وبينما
كان ذات يوم جالسا في كهفه سمع وقع حوافر جواد وصوت انسان
يعنى فقام الى الباب ليستطلع الامر واذا به يرى شابا مفتول العضل
عليه سيما الشراسة والشر فسأله ابن العراب عن نفسه وعن وجهة
قصده فأجابه الرجل وقد أمسك بزمام فرسه يوقفه :
- و أنا لص أقطع الطريق على الناس وكما قتلت انسانا كلما
ازددت ابتهاجا فأردد على الدوام الأناشد التي تردد صداها هذه

الجبال

ففكر ابن العراب في نفسه يقول:

هـ هذا رجل قد جبل على الاجرام وطبع على محض الشر فكيف السبيل الى إرشاده لانه من السهل ارشاد أولئك الذين يأتون الى بمحض ارادتهم يعترفون لي بذنوبهم ويطلبون الصفح والغفران ولكن كيف الطريق الى نزع ماكن في نفس هذا اللص من الشر وهو يفتخر بذنوبه ويتباه عجباً بما يقترفه من الآثام ثم فكر ثانية وقال في نفسه «رباه كيف العمل ؟ فقد يأوى هذا اللص الى جهة قريبة من الكهف فيوقع الرعب في قلوب زائريه وبذلك تضيع الثمرة فلا أدري كيف أعيش بعدها » ثم التفت الى اللص وخاطبه قائلاً .

- « اعلم يا هـ ان الناس يحضرون عندي يلتمسون التوبة والغفران باعتبار فهم عن ذنوبهم فلا يفتخرون بها مثلك فاقلم أنت أيضاً عن شرورك وآثامك والتمس التوبة قبل فوات الفرصة ان كنت ممن يخافون الله . وان لم تك ثمة ندامة في قلبك فلا تقرب هذه الجهة لان ذلك يوقع الرعب في قلوب الذين يقدون على فان لم ترعو فان الله كفيلاً بعقابك
فاجابه اللص :

« أنا لا أخاف الله ولا أصنى لهذيانك اذ ليس لك على أقل سلطان. أنت تعيش بزهدك وأنا أعيش باللصوصية فكلانا يعمل ليعيش ويؤذن فالغاية واحدة وان اختلفت الوسطة. وحرى بك أن تدخر ما في نفسك من النصائح للمعجز اللواتي يحضرن مجلسك أما أنا فلا أخدع بزخارف الاقوال. ولكن بما أنك ذكرتني بمقاب الله فلا يشرق صباح الغد حتى أكون قتلت نفسيين ذكرى لهذه النصيحة. وكان بودي أن أقتلك ولكن لا أريد ذلك الآن والويل لك ان اعترضت طريقى بعد اليوم »

ما كاد اللص يتم حديثه ووعيده حتى لوى عنان فرسه وغاب عن الأنظار ولم يسمع له خبراً بعد ذلك فاقام ابن العراب في كهفه نمانية أعوام أخرى في هدوء وسلام .

جلس ابن العراب في كهفه ذات مساء بعد أن فرغ من سقي الاعواد كماداته مترقبا قدوم زائر ولكن لم يحضر اليه أحد ذلك المساء فاكتأب لذلك واستولت على نفسه الهموم والا حزان وأخذ يفكر في معيشته الجديدة في الكهف ثم تذكر قول اللص وكيف عاب عليه التعيش بالزهد والمسكنة فأثب نفسه ورجع يوبخ ضميره .
قائلا :

- ويح نفسي ما أشقاها ! جئت هنا لا كفر عن خطيئتي وإذا
بي أضعف ذنوبي وآثامي . نعم قد صدق اللص في قوله : كلانا
يعمل ليعيش أنت بزهدك وأنا بسفك الدماء وقتل نفوس الأبرياء
ليست هذه هي المعيشة التي أتمسك بها لا كفر عن سيئات نفسي
ولم تكن هذه الخطة التي أنتهجها كقيلة بغسل آثامي بماء الطهر والتوبة
فقد كان علي أن أكتفى باليسير من الخبز ولكن ملك الغرور علي
نفسى فأصبحت أرتاح بمدح الناس إياي بالزهد والتقوى وها أنا
ذا قد استولى علي الهم لاني لم أجد بين يدي من يتقرب الي بالمدح
والثناء . كلا . كلا ! علي أن أفر من وجه الناس وأتمس المعيشة في
ركن آخر من هذه الغابة حيث لا يصل الي أحد منهم .

وما وصل من حديث نفسه الي هذا الحد حتى قام من مكانه
وعلى وجهه أمارات العزم الصادق ثم احتمل سلة الخبز وأمسك
محراثه يمينه ليحفر لنفسه كهفا آخر في ركن مهجور من الغابة
وفما هو في طريقه قابله اللص ففزع منه ابن العراب وولى الادبار
الآن اللص أسرع فأمسك به وسأله عن قصده فأجابه إنه يريد
اعتزال الناس في ركن من الغابة فماد اللص وسأله :

- ومن أين لك ما تبلغ به إذا أنت اعتزلتهم؟
فقال : « ذلك لا يهمني بل أعيش بما يقدره لي رب العالمين »

فسكت اللص ثم أعمل بمهمازه في الجواد واختفى بين أشجار الغابة .

فقال ابن العراب في نفسه :

- ما على لو نصحته مرة ثانية فانه اليوم ألين عريكة من ذي

قبل . ثم صاح بأعلى صوته :

- « ما زال أمامك متسع من الوقت للتوبة والندامة فارجم عن

غيك يا هذا » فرجع اليه اللص مشهرا خنجره يريد قتله ففر ابن

العراب من بين يديه وأخذ يعدو في الغابة بلاء فوجهه فوقف

الاص عن ملاحظته واكتفى بقوله :

- « هذه هي المرة الثانية وأنت تقف في وجهي أيها المعجوز

فحذار فانك لا تفلت من يدي في المرة الثالثة »

وفي مساء ذات اليوم عند ما ذهب ابن العراب ليستقى الاعواد

كمادته كانت احداها وهي الأولى موضع اعجابه واندهاشه لانه

رآها قد اخضر عودها ودبت الحياة فيها واقترت عن شجرة تفاح

صغيرة . فأشرق جبينه وعاد اليه الأمل وقد أيقن أنه سائر في سبيل

التكفير عن خطاياها . ونظر ذات يوم الى السلة التي احتملها من

الكهف السابق واذا بها فارغة ليس بها شيء من الخبز فتسلل الى

الغابة يبحث عن نبات أو ثمر يعمش عليه اذا به يرى سلة أخرى من

الخبز معلقة على احدى الأفضان فأخذها وعاد الى كهفه وعاش عليها مدة من الزمان لا يعكر صفو حياته الا وعيد اللص اذ كلما تذكر تهديده ترتجف أعضاؤه فرقا، خوفا من أن يقضى اللص عليه قبل تكفير ذنوبه الا أنه فكر في نفسه ذات يوم فقال :

- « أنا أجرمت ومع ذلك أهاب الموت ألا يمكن أن تكون ارادة المولى أن أ كفر عن خطيئتي بالموت »

وما وصل من مناجاة نفسه الى هذا الحد حتى سمع صوت اللص يصخب ويلعن كمن يخاطب شخصا آخر فقال في نفسه « إنما الخير والشر بيد الله » وقام لوقته يريد مقابلة اللص فرآه ممتطيا فرسه وقد أردف خلفه رجلا آخر مكبل اليدين والرجلين يوسعه السكاب وضربا ويستنزل عليه اللعنات طول الطريق . فوقف ابن العراب في وجهه وصاح به .

- الى أين أنت ذاهب بهذا الرجل ؟
- هذا ابن أحد التجار أبي أن يعترف لي أين أموال أبيه ولكني سوف أذيقه كل صنوف العذاب حتى يقر لي بالمسكان
ثم أمهل المهماز في جواده يريد السير ولكن ابن العراب كان ممسكا بالفرس بكل قوته فلم يدعه يمر وقال له بلهجة الغاضب :
- دع هذا الرجل وشأنه .

عند ذلك استشاط اللص من الغضب ورفع يده يريد لطمه وهو يقول :

« أتريد أن تذوق طعم العذاب الذي أعدته لهذا الرجل ؟
تنزع عن طريقي والا قتلتك شر قتلة »

ولسكن ابن المراب لم يتزعزع من مكانه بل وقف ثابت الجأش وأجاب اللص بقوله .

« لا أدعك تنقل خطوة واحدة دون أن تمر على جثتي
وتطأها بسنابك جوادك فانا لا أخاف سوى وب العالمين فهو الذي
يثبت قدمي الآن لا أجاهد في سبيل الخير فلتكن مشيئة الله »
فأطرق اللص واجما ثم أخرج سكيناً صغيراً قطع به قيود الشاب
ونظر الى الرجل وابن المراب وهو يقول :

« أغربا الآن عن وجهي وحذار أن تقف في طريقي مرة
أخرى أيها المعجوز »

فقفز ابن التاجر وانطلق يعدو في الغابة. أما اللص فكان على
وشك أن يعلو جواده ثانية حينما أمسك الراهب بطرف ثوبه
وأخذ في نصحه وارشاده وكان اللص في هذه المرة مطرقاً لا ينبس
ببنت شفة إلا أنه عاد فمز رأسه ثانية وركض بجواده نحو الغابة
وفي اليوم التالي لهذه الحادثة وجد الراهب أن الحياة دبت

في العود الثاني ونمت شجيرة تفاح أخرى بجانب الاولى
مرت على هذه الحادثة عشرة أعوام وقد جلس ابن العراب
ذات يوم في كهفه بطمأنينة وسلام وقلبه يطفح بشرا وسرورا ولا
يعكر صفوهناؤه خوف أو طمع وكان يفكر في نعم المولى على عباده
وكيف ان الله جلت قدرته هيا لهم كل ما فيه غبطتهم وسعادتهم
وثم هم هم الذين يوردون أنفسهم موارد البؤس والشقاء ويعملون على
تعمير صفو الحياة بأطماعهم وشرورهم ثم انتقل بفكره الى الانسان
وما جبل عليه من شر والى الحياة الاجتماعية وما فيها من أمراض
والآلام فقال في نفسه :

« عار على الأبرح مكاني هدا بل على أن أسمي في الارض
أرشد الناس الى الطريقة المثلى لتزع الشر من بين جوانبهم !!
وبينما هو غارق في هذه الهواجس اذا باللص يمر من أمامه
فتركه يمر بدون أن يتعرض له بل قال في نفسه .

« ان الكلام مع مثله لا يجدي نفعا لانه لا يفقه لما أقول معنى »
ولكنه ما لبث أن غير عزمه وقام مسرعا خلف اللص فرآه مغبر اللون
مطرق الرأس خاشع البصر فأشفق عليه ووضع يده على ركبته
وخطبه قائلا :

« كن رحيمًا بنفسك يا أخى. انك طالما عشت في الارض فسادا

وأهلكت نفوساً بريئة وكنتم شراً ووبالاً على الإنسانية ومع ذلك
فإن الله رحيم بعباده يقبل توبة التائب ويعفو عن أساءة المسيء فلا
رجعت عن ضلالك وأشفقت على البقية الباقية من حياتك»

فوجم اللص لا يتسكلم ثم عاد يريد السير ثانية وهو يقول
«دعني وشأني» ولكن ابن العراب لم ييأس بل طفرت من عينه
دمعة سخينة فمسحها بطرف ردائه وأقبل على إرشاده ونصحه فنظر
اللص إليه طويلاً ثم رمى نفسه عن جواده وركع امامه يقول .

— ها أنت ياسيدي قد ملكت على نفسي وظفرت بها أخيراً
بعد أن قاومتك عشرين عاماً فافعل بي ما تشاء فاني رهين اشارتك
اذ لا طاقة لي بأكثر من ذلك . قد استفزني الغضب عند ما وقفت
في طريقى تريد نصحى وإرشادى في الزرة الاولى ولكن ما كدت
تعتزل الناس وتزهد في أعطياتهم حتى أخذت أقدر أقولك ونصائحك
حق قدرها اذ علمت انك لم تنصحنى لغاية أو فائدة وإنما قلت ما
قلته لحض الخير والاحسان . ومنذ ذلك اليوم قدرت جهادك حق
قدره وسافنى عامل الاعجاب بك الى احضار الخبز اليك في سلة
كنت أعلقها على غصن احدى الاشجار القريبة من كهفك

فتذكر ابن العراب عند ذلك تلك الحادثة التي مرت به عند
ما كان بضيافة المرأة وكيف انها لم تتمكن من تنظيف المائدة الا

بعد أن غسلت تلك الخرقه التي كانت بها، كذلك هو لم يتمكن من تطهير قلب غيره الا بعد أن طهر ذات نفسه ثم استطرد اللص حديثه قائلا : ولكن حتى ذلك الوقت كنت معجبا بك فقط ولم تؤثر نصائحك في نفسي تأثيرها المطلوب الا بعد ما علمت انك لاتباب الموت « فتذكر ابن العراب حينئذ ما رآه من أمر الصناعات الذين كانوا يحاولون احناء القطعة الخشبية وبانهم لم يتمكنوا من ذلك الا بعد أن ثبتوا الكتلة في مكانها تمام الثبات فعلم أن نصائحك لم تؤثر في اللص ذلك التأثير البليغ إلا بعد أن طرح عن نفسه رداء الخوف من الموت وأشعر قلبه حلاوة الايمان الصادق « ثم ختم اللص حديثه قائلا : « ولكن لم يحترق قلبي بنار التوبة والاحلاص الا حينما رأيتك تشفق على وتبكي لأجلي »

عند ذلك أخذ ابن العراب بيده وذهب به حيث الاعواد الثلاثة أيضا فأشرق شعاع الامل بين جوانب نفسه وعلم أن الله قد تقبل توبته وغفر خطيئته وتذكر كيف أن الرعاة لم يتمكن من احراق الاعشاب واضرامها الا بعد أن ذكت النار تماما فعلم أن اللص لم يتم توبته الا بعد أن ذكت نفس مرشده تماما ، عند ذلك قضى نحبه قرير العين هنيء البال بعدما أفضى الى اللص بكل ما علمه وتعلمه ثم أوصاه بارشاد الناس الى طريق الخير بالقدوة الصالحة والمثل الطيب.

— ٥ —

مكيدة شيطانية

وأما الخمر فهي تزيل عقلا
فتحت به مغالِق مبهمات
ولو ناجتكَ أقداح الندامى
عدت عن حملها متهدمات
تذيع السر من حر وعبد
وتعرب عن كنانن معجمات
فاز هلكت خروسك ام ليلي
فا أنا من صحابك والذات
فمنك تعود أبنية المعالي
وأطلال النهى متهدمات
وقديضحي صحابك اهل سجن
وتلقين الكؤوس محطامات

« للمرى »

في صباح ذات يوم خرج قروي من كوخه الحقيير يحمل تحت
بطه فطور ذلك اليوم موليا وجهه نحو الحقل الذي ما كاد يصل

اليه حتى خلع معطفه ورماه تحت إحدى الشجيرات بعد أن لف فيه مامعه من الخبز . ثم شرع في العمل . وبعد هنيهة أنهكه الجوع وأضنى التعب جواده . فأطلق سراح الجواد وجلس هو أيضاً كل ما أعده للفطور ولما تفقد الخبز لم يجده بين طيات ثيابه فأخذ يقلب المعطف بين يديه ويدقق النظر في كل جزئياته . ولكنه عبثاً كان يحاول إذ أن الشيطان كان قد سبقه إلى الشجيرة . وسرق ما في المعطف من الطعام ثم جلس منتظراً صخب القروي ولعناته على سارق الخبز الآن فآله قد خاب لأن القروي مع ما داخله من الأسف لم يتأثر كثيراً لفقد الطعام بل اكتفى بقوله : « ما على لو صبرت فان الجوع ليس بقاتلي وربما كان الآخذ في حاجة إلى ذلك الخبز فليهنأ به » قال هذا القول وذهب تواء إلى بئر قريب منه حيث أطفأ ظمأه وارتاح قليلاً من وعناء العمل ثم عاد فأمسك بعنان جواده واستأنف العمل ثانية :

أما الشيطان فقد استاء من عمل القروي إذ رآه أعقل من أن يقع في الخطيئة فأسرّها في نفسه وعزم أن يخبر رئيسه بالامر . وبالفعل ذهب من وقته إلى إبليس وقص عليه الحكاية وكيف أن القروي لم يعبأ بفقد الخبز ولم يسخط على آكله بل تمنى له الهناء والسرور ، فما كاد إبليس يسمع ذلك حتى غلى مرجل حقه وانتهر

تأميده قائلا : « انما اللوم في ذلك راجع عليك لانك لم تقم بمهمتك كما يجب واعلم ان القرويين اذا ابتدأوا يتهجون على هذا المنوال واقتفى اثرهم في ذلك زوجاتهم فالويل لنا نحن معاشر الالباسة فالامر خطير لا يجمل بنا أن نتغافل عنه فانكص على عقبيك سريعا وأصلح خطأك هذا وإن لم تنتصر على ذلك القروي الساذج في ظرف ثلاث سنين فسوف أريك كيف يكون جزاء الالهال » فعاد الشيطان الى الأرض مسرعا وهو ينتفض فرقا وقد تقطعت نياط قلبه من تهديد الرئيس ، وأخذ من وقته يفكر في حيلة يوقع بها ذلك المسكين في حياثله ، واخيرا اهتدى الى مشروع وجدده كفيلا بنجاحه فتزيا بزى أحد المال وتمكن من أن يدخل في خدمة القروي .

وفي عامه الأول نصحه بأن يبذر حبوبه في أرض رطبة فعمل القروي بنصيحته وكان الجو من حسن حظه جافا فانتجت الارض محصولا جيدا فتمكن من ملء مخازنه وأصبح لديه كميات وافرة من القمح تزيد عن حاجاته . وفي عامه التالي عاد اليه الشيطان ينصحه بأن يبذر حبوبه على رطوبة من الأرض ثم جاء وقت الحصاد وكان الصيف رطبا فاستفاد القروي من النصيحة وتوفر لديه شيء كثير من القمح يربو عما جناه في عامه السابق فخار في أمره ولم يدر ماذا يصنع

بكل ذلك القمع الكثير فوسوس اليه الشيطان أن يستخرج منه نوعا من الخمر ففعل، وكان الخمر المستخرج قويا شديدا التأثير ففسر بهذا الاكتشاف وأخذ يشرب منه هو وزوجته وأهدى الى أصدقائه الشيء الكثير. عند ذلك ذهب الشيطان الى رئيسه فرحا مستبشرا وقص عليه ما فعله لاغواء القروي فقام ابليس مسرعا ليشهد الامر بنفسه ويتحقق صدق مقاله ولما وصلا الى منزل القروي وجد ان صاحب المنزل يستعد لحفلة ساهرة دعا فيها كل جيرانه الاعزاء ثم رأيا وفود المدعوين تقبل الى المنزل زرافات ووحدا، وصاحبة الدار قائمة بخدمتهم تدور عليهم بالاواني، اذا بها قد تعثرت فوقعت الاواني من يدها وسال الخمر على الارض فاحتدم زوجها غضبا وصاح بها يقول « ما الذي دهاك أيتها المسراة حتى أرهقت هذه الخمرة اللذيذة على بساط الغرفة . أظننت أن ما بين يديك من ماء البئر حتى أخذت في اتلافه واسرافه» وما كاد الشيطان يسمع هذه الكلمات حتى غمز رئيسه قائلا : « أسمع أنت كلام ذلك القروي الساذج الذي لم يهتم لفقد كسرة الخبز» وبينما كان القروي ينتهر امرأته ويلومها على فعلتها اذا بقروي فقير دخل عليهم متطفلا واستوى جالسا على المائدة ينتظر اكرام صاحب الدار ولما طال به الجلوس تامل صاحب المنزل من جلوسه وتتم يقول: « أنا ليس في وسعي أن أقدم

شربا لكل من يتطفل على موائدنا ، فسمع ابليس هذه الكلمات وسرفى نفسه بهذه النتيجة الا أن تلميذه قال وهو يتسم : انتظر قليلا فسوف ترى ما هو أعجب . وفعلا ماكاد يتم قوله هذا حتى كان القوم أخذتهم نشوة الخمر فأصبحوا يخادعون بعضهم البعض بالفاظ ملؤها الملق والرياء . عند ذلك قال ابليس : « اذا كان بعض الخمر يجعلهم على هذه الحال يروغون كالشعالب ويتملقون بعضهم البعض ولكنك سوف تراهم عقب الكأس الثانية كالذئب المفترسة ينهشون لحوم بعضهم البعض » فما أتم الشيطان هذه الكلمات حتى كان الشراب يدور على القوم ثانية ، ثم ارتفعت من بينهم دواعي الحشمة وأصبحوا يتبادلون وحشى الكلام وقبيح الألفاظ ثم أدى بهم الأمر الى المضاربة فالملاكمة فتلا لأوجه ابليس بشرا وهنا تلميذه بذلك الفوز الباهر قائلا : « هذه هي الخطوة الاولى فى سبيل النصر » فأجابه تلميذه : « انتظر حتى النهاية ترما هو أغرب فانهم الآن كالذئب يكاد أحدهم يفترس صديقه ولكنك سوف تراهم كالخنازير عقب الكأس الثالثة »

عندما دارت الكؤوس عليهم مرة ثالثة فملت أصواتهم وزاد صخبهم وأصبح كل منهم يلعن ويشتم بلا سبب ومن غير داع . وبعد برهة وجيزة انقرط عقد جمعهم وأخذوا ينسلون من مكان

الدعوة جماعات ووحدا نا يترنحون سكر ا و يمايلون ذات اليمين وذات الشمال ، تم ذهب المضيف أترم ليشيعهم ولكنه ماكاد يخطو بضع خطوات حتى تعثر في مشيته فوقع في حفرة مملوءة بالأوجال وتلطخ بها من قة رأسه الى أخمص قدميه ، فازداد ابليس لهذا المنظر بهجة وسرورا والتفت الى تلميذه يقول « لله درك فلقد كان نجاحك باهرا وفوزك مبينا ولكن خبرني كيف صنعت هذا الشراب فلا رب أنك أضفت اليه بضع نقط من دم الثعالب وهذا ما حدا بهم لان يروغوا ويتملقوا بعضهم البعض في الكأس الاولى ، ثم أظن أنك أضفت اليه بعضا من دم الذئب اذ كان نتيجة ذلك أنهم أصبحوا كالذئب العاوية . وأخالك أتممت العمل بوضع نقط من دم الخنزير حتى أصبحوا يمايلون الخنازير عقب الكأس الثالثة ، فقال الشيطان :

- كلا فانك لم تصب كبد الحقيقة فليست هي الطريقة وكل ما في الامر أنى بذلت ما في وسعى لان أجعل ذلك القروي يملك حبوبا أكثر مما يحتاج اليها فالانسان يجول في عروقه دماء الحيوانية على الدوام وتظل هذه الفريزة كامنة في نفسه طالما كان يملك من حطام الدنيا أقل من ضرورياته . يدلك على ذلك ما أظهره القروي عندما تحرشت به في مبدأ الامر ولكنه ماكاد يتوفر لديه أكثر مما يحتاج اليه حتى أعماه الغنى وتمادى به الفرور فأخذ يبحث عن

دواعي الملاهي والسرور وهنا سنحت الفرصة لاغوائه فأخذت
بيده الي طريقة من طرق الغواية اذ أرشدته الي صنع الخمر فاستلذها
المسكين لسوء حظه وشربها عذبة سائغة فكان في ذلك كالساعي الي
حتمه بظلمه فانه ما كاد يكفر بأنعم الله حين اعطيته خمره تذهب
برشده حتى ظهر ما كمن في نفسه من تلك الدماء الخبيثة ، دماء
الحيوانية ، فأصبح وحشا ضاريا بعد أن كان بشراً سوياً وهو يظل
كذلك وحشا مفترساً بعيداً عن مناهج الانسانية طالما يماقر تلك
المادة الدنسة



- ٦ -

ثلاثة أسئلة

أراد أحد الملوك مرة أن يقف على اجابة ثلاثة أسئلة جالت بمخاطره وظن أنه إن تم له ذلك فلا يكون الفشل حليفه قط في أى مشروع يأخذ على عاتقه القيام به وما كاد هذا الفكر يستقر في فؤاده حتى أعلن في طول البلاد وعرضها أن من يجيب الملك على أسئلته الثلاثة الآتية ينال جائزة قيمة أما الاسئلة فهي:

(١) كيف يعرف الانسان الوقت المناسب للشروع في

أى عمل ؟

(٢) من هم الذين يجب الثقة بهم أو الابتعاد عنهم ؟

(٣) كيف يتسنى له معرفة أهم الاشياء التي يشتغل بها ؟

وما كاد هذا يذاع في المدائن حتى تقاطر اليه العلماء من كل

صوب الا لانهم ذهبوا في اجاباتهم مذاهب شتى .

فقال أحدهم اجابة عن السؤال الاول : اذا أراد الانسان أن

يعرف حقيقة الوقت المناسب لبدء كل عمل فما عليه الا أن يخطط

جدولا يكتب فيه أسماء الايام والشهور والسنين محسوبة مقدما

ويواظب تماما على العمل به وبذلك يمكنه أن يؤدي كل عمل في

وقته المعين . وقال آخرون : أن من الحال لاى انسان أن يتنبأ بالوقت المناسب لكل شيء وانما الواجب عليه أن يراقب بكل دقة وانتباه مجرى سير الاحوال التى تحيط به ومتى علم ذلك صار من السهل عليه معرفة أى الأشياء أكثر أهمية فيبدأ بها فى وقتها . إلا أن بعضهم اعترض عليهم فقال مـهما يكن الملك يقظا وه اعياى لكل ما يحدث حوله فانه لا يتوصل لمعرفة ذلك الا بعقده مجلسا يتضمن كبار العلماء والعقلاء ليسانعدهم بأفكارهم على تحديد الوقت المناسب فرد عليهم آخرون بأن هناك كثيراً من المسائل التى يجب البت فيها فى الحال ولا يمكن أرجاؤها حتى ينظر فيها المجلس . فالطريقة المثلى لمعرفة ذلك هو التنبؤ بحوادث المستقبل وبما أن هذا لا يفقهه الا السعرة فالاجدر بالانسان مشاورتهم فى الامر

وكان ما أصاب الاجابة عن السؤال الثانى من الاختلاف لا يقل عما أصاب سابقه فقال احدهم إن أنفع الناس للملك وأجدرهم بثقته هم وزراءه ومستشاروه وقل آخرون الكهنة ورؤساء الدين وقال ثالث نطس الاطباء وقال رابع إن المحاربين وطائفة المجاهدين هم الاكثر ضرورة للملك دون سواهم

أما السؤال الثالث فكان نصيب الاجابة عنه من تباين الآراء كذلك مما لا يقل عن سابقه فأجاب بعضهم بأن أنفع الأشياء للملك

هو العلم وقال ثان المهارة في الفنون الحربية وقال غيره الاشتغال بالأمور الدينية .

ولما رأى الملك اختلاف العلماء وتباين أفكارهم لم يقتنع باجابتهم فلم ير أحدا منهم جديراً بالجائزة المدة . ولما لم يجد الملك ضالته المنشودة في من وفد الى حضرته من العلماء وكانت رغبته تزداد في الوقوف على أجوبة صحيحة لاسئلته الهامة عمد الى المفاوضة مع ناسك مشهور بوافر عقله وغزير حكمته فقام لوقته وارتمى ملابس بسيطة لان هذا الناسك لا يقابل الا العامة ثم سار نحو الغابة التي اتخذها ذلك العابد مسكناً لا يبرحه ولما دنا من صومعته ترجل عن جواده وذهب اليه وحيدا تاركاً وراءه جنده وحراسه

قرب الملك منه فوجده يحفر في الأرض أمام كوخه فلما وقعت عيننا الناسك عليه حياه واستمر في عمله وبالنسبة لضعف جسمه ونحو له كان كلما جرف بمجرفته قطعة من الأرض علت زفراته وتصدت أنفاسه فتقدم نحوه الملك مخاطباً اياه « انى أتيت اليك أيها الناسك العاقل . لتمسأمنك الاجابة عن ثلاثة أسئلة ، فهل اتوليني سرورا بتحقيق أمنيته . » فأصغى اليه الناسك الا أنه لم يجبه بكلمة واحدة واستأنف الحفر . فزاد الملك قائلاً « انى لا خالك قد تعبت الآن فأذن لي بالاشتغال برهة حتى تستعويض بعض قوتك »

فشكره الناسك وأعطاه المجرفة وجلس هو ليستريح - وبعد أن جرف الملك مرتين توقف وأعاد أسئلته ثانيا فلم يمره الناسك أقل انتباه ولم ينبس ببنت شفة وقام لوقته ومد يده للمجرفة يطلبها من الملك إلا أن هذا أبي أن يعطيه أياها واستمر في الحفر حتى مضت ساعتان وابتدأ قرص الشمس أن يختفي وراء الأشجار واذ ذاك توقف الملك عن العمل وقال للناسك : « انى قصدتك أيها الحكيم لتجيبني على أسئلتى فان لم يكن لك علم بها فاخبرني حتى أنصرف وأعود من حيث أتيت » فقال الناسك بلهجة تدل على الاهتمام « التفت . ألا ترى رجلا مقبلا يمدو نحونا ! ها هو يجب أن نعرف أولا من هو » فالتفت الملك فرأى رجلا ذا لحية طويلة يتقدم مسرعا نحوها واضعاً كتا يديه على بطنه والدم يسيل من تحتها

ما كاد هذا الغريب يصل حيث يجلس الملك حتى خر على الأرض يصرخ من الألم ويئن أنات متواصلة ففك الملك والناسك ثيابه المخرجة بالدماء والقياحرحاً بليغا يتدفق منه الدم فعنى به الملك وضمد جرحه بمنديله ومنشفة كانت عند الناسك . ولكن مع كل هذا لم تقف حركة خروج الدم لذلك كان الملك نفسه يزيج العصا ويمتص الدم بحرارة زائدة وينسل الجرح مرات عديدة ثم يعيد اليه الضمادة ثانية وهكذا حتى انقطع الدم وانتعش الرجل وطلب جرعة ماء فاحضر

الملك له الوعاء وأسقاد منه كفايته وفي ذلك الوقت مالت الشمس الى
المغرب وأقبل الليل بنسائه الباردة فحمل الملك والناسك الجريح وأدخلاه
الكوخ وما كادا يوسدا انه الفراش حتى أطبق عينيه واستغرق في سبات
عيق . أما الملك فقد أعيته مشقة العمل وانهكه تعب الحركة فجثا
لوقته عند مدخل الكوخ واستسلم أيضا لنوم هادىء طويل .

مضت تلك الليلة ونام الملك فيها ملء جفنيه ولما استيقظ في
الصباح أراد أن يعيد الى ذاكرته حوادث الليلة الماضية إلا أنه قبل
أن يتذكر أين هو ؟ ومن ذلك الغريب النائم على الفراش الناظر
اليه بعينين براقتين سمع صوتا ضعيفا يقول « ساعحنى » فعلم أنه
صوت ذلك الغريب الجريح فالتفت اليه وقال يلوح لى أن ليس
بيني وبينك سابق معرفة فعلام تطلب مساعحتى ؟ » فقال نعم إنك
لا تعرفنى ولكنى اعرفك حق المعرفة . فأنا عدوك الألد الذى حلف
لينتقم منك لأنك أعدمت أخاه واغتصبت أملاكه وقد عدت
بمجيئك الى هنا منفردا فعزمت على قتلك عندأوبتك ولكنى عندما
رأيتك لم ترجع وقد انقضى اليوم خرجت من مكمنى لاقتش عنك
عسى أن التقى بك واذا بحراسك قد عرفونى فأطلقوا على بعض
غداراتهم وأصابونى فهربت من أمامهم والدم يتدفق والآلام تزداد
حتى رماني اللهين يديك فضمدت جرحى وعطفت على . فما أظهر

قلبك وأرق عواطفك : يارباه انى أتيت لاقتلك ولاكنك أنقذتني
من الموت وبعثت في الحياة ثانية فلاشكرتك ماحييت ولن أنسى
هاتيك الايادى البيضاء مادام في عرق ينبض ولى لسان ينطق
ولا كون لك الخادم المطيع والعبد الأمين مادمت أستنشق نسيمات
الحياة. وسآمر أولادى أن يقتفوا أثرى من بعدى فنوقف حياتنا
جميعا لخدمة الملك ٥

ولا تسئل عن سرور الملك وقتشد فقد كان عضيا ولا شك في
ذلك . فان الصلح الذى عقده مع عدو من ألد خصومه بدون أن
يبذل في سبيله أقل مجهود يعد حقا صفقة رابحة له . كيف لا وانه
بذلك الصلح اجتزأ أسباب البغضاء التى أضرمت في فؤاد ذلك
العدو نار العداة واقتلع بذور الشجناء التى نبتت في قلبه على
توالى الزمن وأقام مكانها في رحبة ذلك القنب نفسه قصور المحبة
تظللها أشجار الطاعة ودوحات الاخلاص . ثم أمر طبيبه الخاص أن
أن يعنى بالجربيع عناية تامة ووعدته برد كل أملاك الضائمة . وبعد أن
استأذن الملك من الجربيع بالانصراف عزم على الرحيل إلا أنه ودأن
يقابل الناسك لأخر مرة عسى أن يهديه الى ضالته المنشودة
فوجده يبذر الحب في الارض فلما قرب منه قال له « أتوسل اليك
للمرة الأخيرة أن نجيبني على أسئلتى حتى يطمئن بالى وتكون قد

أسديت لي جيلا لا أنساه « فرفع الناسك اليه بصره وقال « إنك
لقد أجبت تماما على كل اسئلتك « فدهش الملك وقال متمجبا « كيف
ذلك وماذا تعني ؟ فرد عليه الناسك بقوله : « ألم تر أنك لو لم تعطف
على بالامس ولم ترحم شيخوختي وضعفني وتركتني أقاسي آلام
العمل وحدي فان عدوك كان لا بد قاتلك واذ ذاك كنت تمض
أصبع الندم حسرة على عدم بقائك معي . فاعلم اذن أن أئمن أوقاتك
هو وقت اشتغالك بالحفر وأنفع رجل وقتئذ هو أنا واسداؤك الخير
هو أهم ما اشتغلت به . ثم عندما وصل الينا الرجل يتخبط في دمانه
كان أهم وقتك وقت اعتنائك به لانك لو لم تضمد جراحه لفضى
نحبه بدون أن تطفىء نار بغضائه وتحول عداوته المرة الى صداقة
متينة وطاعة دائمة وإذ ذاك كان الجريح بطل ذلك الوقت وما
قدمته له من أيادي الخير أهم الاشياء وأنفعها لديك وأكثرها فائدة
لك . فاعلم جيدا أن ليس هناك الا وقت واحد هو من الالهية
يمكن وذلك الوقت هو (الآن) أو البرهة التي أنت فيها وما هذا
إلا لانك تكون فيه مالكا ومستجما لكل قواك الحالية وأهم رجل
هو من تتكلم معه لانك لست عالما بما هو مسطرلك في سجل القدر
وفعلك الخير له أنفس ما تشتغل به لان لهذا الغرض وحده دون
سواه ظهر الانسان على مسرح الحياة

-- V --

الياس

هناك تحت ظل حكومة أوفاء عاش رجل يدعى الياس مات والده بعد أن أتم تأهيله بحول كامل غير تارك وراءه الاثروة واسعة لا تزيد على سبعة أفراس وبقرتين وما يقرب من العشرين رأساً من الغنم الا أنه فوق ذلك خلف لفلذة كبده الحزم والجهد فكانا نعم الثراء وحبذا الارث العظيم. أجل فقد كان الياس حازماً مجداً لا يدع فرصة تمر بدون اقتناص ولا ينسى في المشارة على اصلاح شؤونه. فكان يقوم مبكراً والناس نيام ويدافع الى فراشه بعد أن يهجم كل انسانه وجده وحزمه كانا كفيلين بتوسيع نطاق ممتلكاته وازدياد ثروته التي بلغت في نهاية الخمسة والثلاثين عاماً مائتين من الخيل ومائة وخمسين رأساً من الماشية والالف ومائتين من النعاج فضلاً عن كانوا يمرحون في مزرعته من الرجال المأجورين والنساء المسأجورات أولئك لرعاية ماشيته وقطعانه وهؤلاء لحلب بقره وأفراسه وعمل الكومس (١) واستخراج الجبن والزبد. ومن ذلك الوقت بسم له الدهر فأصبح الياس رب ثروة وافرة وصاحب أملاك واسعة

(١) شراب روسي مخمر يحضر من لبن الافراس

حسده عليها جيرانه ومواطنوه فقالوا عنه « الياس رجل مبغى
خالقه الجد فرافقته السعادة وأقبلت عليه الدنيا فأصبحت طوع
بنانه » ثم ذاع صيته وعلت شهرته وتمهلت على زيارته كثيرون من
سراة القوم وتسابقوا الى معرفته العدد العظيم ممن ودوا التقرب منه
فكان يكرم مشواهم ويذبح لهم الذبائح ويقدم لهم كل شهى من الطعام
ولذيذ من الشراب

لم يرزق الياس الا ولدان وابنة كانوا عضده الاقوى أيام بؤسه
يفلحون له الارض ويرعون الماشية ويباشرون كل أعمالهم بأنفسهم.
أما وقد ارتاش الياس فقد تصارعت بين نفسيهما عناصر المفسده ثم
لقى اكبرها مصرعه فى عراقك وأدمن الآخر على تماطى المسكرات
وانقاد لامراته فى عدم اطاعة أبيه والاذعان لأوامره فانفصل
عنه بعد أن لم يطلق معه صبيرا وقد منحه الياس منزلا يأويه وجاد
عليه بيمض الماشية كي تعاونه على الحياة فكانت هذه التجزئة سببا
فى تصغير ثروته وفاتحة لمصائب جمة . فعلى أثرها انتشر وباء فتاك
حصد كثيرا من اغنامه وتلا ذلك سوء محصول القمح ثم أغارت عليه
قبائل الكرغيز فسلبته الصافنات من جياده فأتى هذا ضفنا على
إبائه وهكذا نخرت عوامل الضعف فى ذلك الثراء فانهار عليه بنيانه
وأخذت عوامل التلاشي تعبت ببقايا تلك للثروة الدارسة بينا

كان الياس يوسع الخطا نحو القبر ويثن تحت عبء الشيخوخة
الثقيل اذ اربى على السبعين وقد انقطعت عنه اخبار ابنه القاصي اما
الابنة فمدا عليها المنون واختطفها من بين ابويها وبذلك فقد الشيخ
وزوجه آخر نصير لهما في الحياة ..

نزات بهما كل هاتيك المصائب وأحاطت بهما الشدة احاطة السوار
بالمصم فألجأتها الى بيع كل ما عندهما من بقايا اثار المجد القديم
حتى أصبحا لا يملكان الا ما يستر عورتهم من ثياب أبلاها الدهر
والحدان وما هي الا عشية وضحاها حتى كنت ترى الشيخ وزوجه
في حالة يستعطران معها اكف المحسنين ويسألان العطف بمجوزين
تقوس ظهراهما تحت عبء الفاقة والكبر وهكذا أنزلها الزمان في
الحضيض بعد السنام وصدمةم بكاه فاسترد ما أعارهم من مجد
مؤئل وعز قديم

بجوار منزل الياس كان يقطن محمد شاه رجل طيب القلب
كريم الاخلاق الا أنه ليس من ذوى الثراء الواسع. ما كاده هذا الرجل
يرى ما وصل اليه جاره حتى تذكر مجده الضائع وكرمه الماضي
وعاودته ذكرى تلك السمادة التي تقلب بين أعطافها زمنا طويلا
فمطف عليها وقال لهما هيا عيشا معي ايها الرفيقين واشتغلا بقدر
ما تسمح به قوتكما وأنا الكفيل بأمر طعامكما ولباسكما وقضاء كل

مهامهما ، فلم يسميها الا أن يشكراه على حسن صنيعة وأصبحا من ذلك الوقت مشمولين برعايته بعد أن انتظما في سلك خدمته لقد بدا لهما المركز حرجا والعمل شاقا في أول الامر الا انهما ألفاه بتأثير العادة واستمر اياشرا ن كل ما يقويان عليه من العمل بهمة ونشاط . وكان محمد شاه يرى أن من منفعته الاحتفاظ بمثل هذين العاملين لانهما تمرنا على كثير من الاعمال فضلا عما كان يبدو عليهما من اليقظة والنشاط الا أنه من جهة اخرى كان كلما تمثلت أمام عيني شدة السقطة التي لاقاها هذان المنكودان - سقطة المجد من أعلى قته الى أعماق هاوية المدلة السحيقة - هز رأسه أسفا وحزنا واتفق مرة أن وفد على محمد شاه بعض أقاربه القاطنين لزيارته ورفقتهم أحد المتصوفين (ملا) وبيناهم جانسون يشربون الكومس واذا بشيخ نقض الدهر مرته يمر من أمامهم فالتفت اليهم صاحب الدار قائلا : « ألا ترون هذا الرجل فأجابه احدهم نعم وماذا بعد ! فاستمر يقول :

« إن اسمه الياس ولقد أتى عليه يوم كان فيه أغنى رجل بيننا وأكبر وجيه في هذه النواحي أما الآن وقد قلب له الدهر مجنه فأصبح مشودا ضريكا فقد أشفقت عليه هو وزوجه وشملتهما بعطفي وأدخلتهما في خدمتي يشغلان معي بقدر ما تسمح ارادتهما



واني لأخالكم قد سمعتم بهذا الاسم من قبل .
فقال الزائر « كيف لا وقد عبت شهرته في طول البلاد
وعرضها » واستمر المضيف يقول : - وهو وزوجه يقيان معي
الآن ويشغلان عندي كعاملين »

فهر الزائر رأسه بعد أن بدت على وجهه علامات الأسف
وقال متأوها - « ما أشبه الحظ بدورة الفلك فهو آونة يرفع المرء
الى سماء السعادة وجنات النعيم وأخرى يؤدي به الى مقعر البؤس
والنحوس ولكن هل قلبه ياترى مغم بالحزن والأسى على تلك
السعادة المفقودة والثروة الضائعة ! » فقال محمد شاه :

- ومن يدري فهو يعيش عيشة يحوطها الهدوء وتظللها
السكينة وبيامر العمل بهمة لا تعرف الكلل . فقال الضيف مخاطبا
صاحب الدار :

- أتأذن لي بوضع دقائق أفضيها في محادثة هذا الشيخ لأستجلى
بعض أسرار حياته الماضية
- ولم لا ؟

فناداه صاحب الدار قائلا « تعال أيها الشيخ الجليل لتشار كنا
في بعض كؤوس من الكومس نقدمها اليك »
فاقترب الياس محيا سيده وسائر ضيوفه ثم ناوله كأسا الا



أنه ما كاد يأخذ منها جرعة نخب الحاضرين حتى أعادها مكانها
وجلس بجانب الباب وكذا أتت زوجته وجلست مختبئة وراء
الستائر . بعدئذ ابتداء الضيف في محادثته قائلاً :

- اننا على ما أظن مسيئون اليك بوجودك بيننا فان ذلك ربما
يذكرك سمادتك الماضيه ويميد اليك أشجانك الحاضرة
فتبسم الياس وقال :

- إن أردتم أن أحدثكم عن السعادة والشقاء فلا أظنكم مصدقيني
والأحرى بكم أن تسألوا زوجتي فهي امرأة وكل مافي قلبها يظهر
جليا على لسانها فكلامها الصدق وحديثها هو كل ما يختلج في
أعماق فؤادها

- فادار الزائر وجهه نحو الستائر وسأل زوجة الشيخ كيف
تقيسين بين سمادتك الغابرة وشقائق الحاضر فأجابته قائلة

- اصنع الى فسا فضى اليك بالحقيقة . قضيت أنا وزوجي نحوا
من خمسين عاما باحثين عن شيء مفقود منقبين عنه في كل مكان فلم
نجده الا الآن - نعم في هاتين السنتين الاخيرتين فقط منذ فقدنا
كل شيء وصرنا عاملين عثرنا على ضالتنا المنشودة ، عثرنا على
السعادة الحقيقية التي لامطعم لنا بعدها

ما تفوهت المرأة بهذا الحديث حتى التفت كل من الجالسين

الى الآخر التفاتة دلت على ما داخلهم من الاندهاش الا أنها استمرت

في حديثها بكل تودة وهدوء :

« مكثنا نصف قرن كامل ونحن نفتش عن السعادة بين رياش

الغنى وفي قصور الثراء فلم نعثر عليها الا الآن حيث ولت هاتيك

الأيام كالاشباح وانصرفت تلك الاوقات المشمعة بانوار الثروة

فسألها الضيف :

كيف ذلك وماذا تعنين بالسعادة ! فأجابته

« ما أشرقت علينا شمس الغنى حتى ظهرت من ورائها المتاعب

الجمّة وتوالت علينا المهموم العديدة . كنا نجلس انفسكر في الاهتمام

بأمر أنفسنا قليلا ونود لو تفرغنا لتأدية الصلاة ولكن هيبات ا

كنا نحاول النوم ولكن من أين لنا ذلك وجيوش الافكار تتقفاناه

تطرد عن أعيننا الكرى، وأشباح المخاوف والوساوس تتأثر نافتبمت

بنا في ظلمة الليل وسكونه الى حيث نخاف أن يفترس الذئب

فلوا أو عجلا أو يسرق اللصوص بعض خيولنا ونعاجنا وهكذا كلما

خامر فؤادنا الريب ولعبت بنا الهواجس دفعنا الحذر الى الاستيقاظ

عدة مرات .

كان يقصدنا الضيوف على اختلاف مشاربهم وتباين طبقاتهم

فكنا نضطر الى تضييفهم بما نقدمه لهم من أنواع الطعام ومختلف

الشراب وما تحضهم به من الهدايا الفاخرة حتى نجس ألسنتهم فلا
نكون هدفا لسهام لعنتهم. ونسد أفواههم فلا ينزلوا علينا وابلا من
قذائف اللوم والتفريع

وفضلا عن كل ذلك لم يكن هناك توفيق بيني وبين زوجي
فكنا على تباين تام وكان هذا مبعثا لاضطرام نار الشحنة التي كانت
تأجج ساعات وأيام. هذه كانت حياتنا سلسلة شقاء متواصل فمن
أين اذن تطرق السعادة بابنا! وكيف نتمتع بالرخاء والهناء وهذه
حالنا،

أما الآن فنستيقظ من نومنا متبادلين تحية الصباح ثم نتناول
طعام الإفطار ونخرج إلى العمل حيث نقضي ساعاتنا نهارنا في هدوء
شامل لا يكدر صفوه مكدر. وعند الأوبة من العمل نلقى أمامنا
من الطعام ما نأكله مريثا ومن الشراب ما نلذبه هنيئا وأمامنا متسع
من الوقت يمكننا من الاهتمام بأنفسنا وتأدية فرائض العبادة لله وإذا
دلفنا إلى فراشنا ننام هلىء جفوننا لا تزعجنا الأحلام ولا ترهبنا
المخاوف والأوهام فهى السعادة التي تقبنا عنها نصف قرن ولم
نمثر عليها الا في هذه الايام.

ما أتمت المرأة حديثها حتى سخر منها الحاضرون الأذن الياس

استغزه الغضب فقال لهم :

« لاتسترسلوا في ضحككم أيضا الرفاق فليس في الامر
ما يستوجب المجون والمزاح - وما هي الاحقائق الحياة نسردها لكم.
اقد تملكنا الجهل باديء بدء فانسجمت عبراتنا حزنا على ذلك العز
الضائع ولكنها الحقيقة أراد الله أن يرينا اياها ناصمة فنحن الآن
نقصها عليكم لا لمنفعة تترقبها أو فائدة ننشدها انما هي لفائدتكم
وذكرى لمن يذكر »

فقال الملا إن هذه لموعظة بالغة وقول الياس الصدق اذ هو
موافق لما ورد في الاحاديث الماثورة فأمسكوا عن الضحك وأطرقوا
كلهم يفكرون فيما دار بينهم من الحديث .



- ٨ -

قمحة في حجم بيض الدجاج

عثر بعض الصبية ذات يوم في أحد الاقبية على شيء يشابه في الشكل حبة القمح في وسطها شق ينتهي بهائتها ولكنها في الحجم تبلغ بمقدار بيضة الدجاج . فرآها بعض السابلة في أيدي الصبية واشتراها منهم بدينس واحد ثم حملها الى المدينة حيث باعها الملك كمعجبية من عجائب الزمن

وجمع الملك علماءه وطلب منهم أن يكشفوا له عن حقيقة تلك المعجبية فأغرق العلماء في التفكير والبحث والتمحيص دون أن يهتدوا الى الحقيقة وبقى أمرها خافياً الى أن طارت نحوها دجاجة وهي في نافذة من نوافذ قصر الملك ونقرتها حتى نقتها وعندئذ انكشفت الحقيقة وانجلي السر وعلم كل من رآها انها حبة من القمح فهرع العلماء الى الملك وزفوا اليه بشرى الحقيقة .

فدهش الملك حينئذ وطلب اليهم أن يأخذوا في درس هذه القمحة ويخبروه في أي زمان زرعت وفي أي مكان نبتت فعاد العلماء الى الدرس والتفكير منكمين على كتبهم للوصول الى الحقيقة الا أنهم لم يفوزوا بطائل ولم يستطيعوا حل اللغز فقالوا للملك :

« لا نستطيع أن نجيبك لأننا لم نعرف في الكتب التي بين أيدينا
على تفسير لهذا المعنى فليأمر مولانا الملك بسؤال الزارعين في هذا
الشان إذ قد يوجد بينهم من سمع شيئا من آباءه عن زراعة القمح في
مثل هذا الحجم » .

فأرسل الملك بطلب من زارع من القرويين المعمرين فبحث عمال
الملك عن رجل فيه الاوصاف المطلوبة وكان رداً صاحب اللون
لم تبق الايام على هيكله البالي سوى جلد مجمد على عظم دقيق وكان
منحنى الظهر يتوكأ على هراوتين تساعدانه على الحركة . فلما مثل
بين يدي الملك عرض عليه القمحة فجعل يفحصها بعينه الضيفتين
اللتين لم يبق فيهما سوى بصيص ضئيل من نور الابصار فسأله الملك
- « أيها الشيخ العجوز أخبرنا أين تنبت مثل هذه القمحة
وهل تذكر أنك اشتريت قمحاً من نوعها أو زرعت في حقلك
مايأكلها ؟

وكان الشيخ القاني مصاب بشيء من الصمم فلا يسمع الا بعد
جهد ولا ينطق الا بمشقة فاجاب بعد عناء شديد :
- كلا اني لم أزرع مثل هذه القمحة في حقلى ولم أشتري
مايشابهها . فالقمح الذي كنا نشتره صغير الجرم كقمح هذه الايام
ويمكن الملك أن يسأل أبي إذ ربما يكون قد سمع شيئا عن وجود

مثل هذه القمحة . فأرسل الملك في الحال في طلب أييه حتى اذا
مامثل بين يديه رأى الملك منه شيخا أقوى من الابن قليلا بنظر
بعينين أكثر بريقا من عيني الابن ولا يعتمد في سيره الا على هراوة
واحدة فسأله القيصر عند ما عرضت عليه القمحة لفحصها :

- « أتعرف أيها الشيخ أين تزرع مثل هذه القمحة ومتى
زرعت وهل اشتريت ما يماثلها في زمنك ؟

وكان هذا المعجوز أحسن سمعا من الابن فأجاب على الفور
- لم أزرع ولم أحصد مطلقا مثل هذا القمح في حقلى أما انى
اشتريت قمحا فلم يحصل فى زمنى لأن النقد كان غير مستعمل فى
عهدى وكان كل منا يزرع ما يحتاج اليه من الخنطة ويبادل على
الحاجيات الاخرى بالقمح الزائد عن حاجته . لأعلم أين كان يزرع
مثل هذا القمح لأننى لم أر له مثيلا وفى عهدنا كان القمح أكبر حجما
وأوفر براً الا أنه لم يكن فى هذا الحجم غير أننى سمعت من أبى أن
قمح زمانهم كان أكبر - حجما وأوفر برا من قمح زماننا ويجدر بك أن
تسأله فى هذا الشأن .

فبعث القيصر فى أثر والد هذا الشيخ وما علم أن جاء على
قدميه لا يتوكأ على هراوة ولا هراوتين وكان براق العينين يتكلم
بوضوح بلا تلجلج وعندما أعطاه الملك حبة القمح تناولها وجعلها

يقلبها بين أصابعه قائلا :

- لقد طال المهدي ولم أر قمحة من هذا الصنف ثم أخذ منها
قطعة بثناياه فتذوقها وأضاف قائلا :

- انها بلا ريب من قمح ذلك الزمن .

فقال له الملك :

- أخبرنا يا جد الجدود أين كان ينبت مثل هذه القمحة وهل
اشتريت ما يماثلها في عصرك وهل زرعت ما يضارعها في حقلك
فأجاب الشيخ المعجوز :

- ان مثل هذا القمح كان يزرع في كل مكان في عهدنا وقد
نشأت عليه وزرعتة بنفسى وحصدت منه بيدي طول تلك الازمان
الغابرة .

فسأله الملك

- وهل اشتريت مثل هذا القمح في زمنك

فابتسم الشيخ وقال :

- لم يفكر أحد من أبناء ذلك العصر في اقتراف مثل هذا
الاثم إذ كنا لانعلم شيئا عن التعامل بالنقود وكان كل انسان يحتفظ
من القمح بقدر كفايته
فقال القيصر :

- اذن خبرني أيها الجد أين كان حقلك الذي كنت تزرع فيه

هذا القمح؟

فاجاب الشيخ:

- كان حقلى أرض الله الواسعة فحيت أحرث أزرع وحيث

زرعت أحصد وما كان لانسان حقل يدعى ملكيته . كانت الارض

مباحة للجميع ولا يملك الانسان سوى عمله و كسب يده .

فقال القيصر أجبني اذن عن سؤالين آخرين : أولهما لماذا

نما مثل هذه القمحة في ذلك العهد ولم ينم في هذا الزمن وثانيهما

لماذا جاءني حفيدك يتوكأ على هراوتين وأبوه على هراوة واحدة

وأنت جئت بلا هراوة ، براق الثمر ، ثابت الجأش ؟ متلألىء

العين ، فصيح اللسان . فما السر في كل ذلك فأجاب الشيخ المعجوز

- السر في ذلك أن الناس أصبحوا لا يمولون في حياتهم على

العمل بانفسهم وانما جنحوا الى الاتكال والتطفل على عمل سواهم .

كان الناس في زماننا يعيشون تحت ظلال شريعة الله فكان أحدهم

لا يحتكم الا بما تجنيه يده ويربأ بنفسه أن يفتصب ما جناه غيره ،

ثمن باهظ

- ٩ -

يوجد على سواحل البحر الأبيض المتوسط . بين حدود الجمهورية الفرنسية والمملكة الإيطالية ، حكومة صغيرة تسمى (موناكو) ، يكاد عدد سكانها يقل عن أصغر المدن في أوروبا ، حيث لا يزيد السكان فيها عن سبعة آلاف نسمة ، لو قسمت عليهم أرض المملكة جميعها لما أصاب أحدهم فدانا واحداً

ويحكم هذه الحكومة الصغيرة ملك مستقل يتوج كما يتوج باقي الملوك ، وله قصر وبلاط وحاشية ووزراء بل وله أسقف وقواد وأيام للاحتفالات الرسمية واستعراض الجند ومجالس ومحام وقوانين ونظامات وجيش يبلغ عدده ستين جندياً . وفي هذه المملكة الصغيرة ضرائب كما توجد في البلاد الأخرى تجبي من التبغ والنيذو والمشروبات الروحية وضريبة أخرى على الأفراد غير أنه وإن كان الناس يدخنون ويتعاطون المسكرات كما يفعل الناس في البلاد الأخرى إلا أن ما تتوفر من هاتين الضريبتين قليل يكاد لا يكفي للمحافظة على أهبة الملك ومظاهره ولا حاشية الحاشية والموظفين ولذلك لم ير الملك في تلك البلاد مندوحة من أن يفكر في إيجاد ضريبة جديدة مبتكرة

تدر عليه بالاموال الوفيرة وهذه الضريبة تأتي من بيت للقمار يلعب فيه الناس اللعب المعروف بالروايت. فالناس تلعب وسواء أخسروا أم كسبوا فلصاحب الدار جزء معلوم من الداخل والخارج ومن هذا الجزء يستوفي الملك مبلغا كبيرا من المال والسبب في حصوله على الجزء الأوفى ان دالر القمار الموجودة في مملكته هي التي بقيت في جميع أوروبا، وقد كان بعض صفار الملوك من الألمان أباحوا تأسيس دور من هذا النوع في بلادهم كانت سببا في ويلات على الناس والانسانية ورأى أهالي المانيا انه كثيرا مايفقد الرجل الى دار من هذه الدور ليختبر حظه فيقامر بكل مايملكه من المال . حتى اذا ماخسر اقترض وقامر بأموال غيره ففقدتها أيضا الى أن يدب اليأس في نفسه فينزح الى الانتحار : ولذلك ثاروا في وجوه ملوكهم ووقفوا بينهم وبين اكتساب المال بهذه الطريقة المقوتة . أما ملك موناكو فلم يعترضه معترض عن الاستمرار في اباحة المقامرة في بلاده فظل سائرا في سبيله حتى اليوم دون أن يلقي ممانعة أو معارضة حتى أصبح محتكرا لهذا النوع من العمل

فكل إنسان يريد أن يقامر يجد ابواب موناكو مفتوحة له على مصراعيها وسواء أ كسب أم خسر ، فلملك تلك البلاد نصيب مما في جيبه . يقول المثل « انك لا تستطيع أن تحوز قصورا شامخة



من طريق العمل الشريف ، وملك موناكو ليعلم تماما أن مورد رزقه ملوث دنس ولكنه مضطر لانه يريد أن يعيش ولانه يعلم أن الاموال الاخرى التي يجيبها من ضرائب التبغ والخبور ليست أصفى ولا أطهر من أموال القمار فهو بذلك يعيش ويحكم ويهب الجوائز والاعطيات ويحافظ على أبهة الملك كسائر الملوك الحقيقيين فهو يتصدر للحكم ويقدم مهرجانات التتويج ويعطى الأوسمة ويمجزي ويعفو . وله كذلك مجلس للوزراء وقوانين ومحاكم لاقامة قسطاس العدل كسائر ملوك العالم ولكن بنسبة صغيرة وقد اتفق منذ بضع سنين أن وقعت جريمة قتل في تلك المملكة الصغيرة . فقد اعتاد أهل تلك المملكة على السكينة والسلام فلذلك لم يسبق لتلك الحادثة نظير في تلك البلاد، واجتمع القضاة اجتماعا رسميا وبدأوا ينظرون في القضية وكان هناك نواب عموميون . فتناقشوا في القضية بعد درسها وأصدروا حكمهم بان يقطع رأس القاتل كما ينص القانون ثم رفعوا الحكم الى الملك فقراءه ووقع عليه بهذه الجملة « اذا كان المجرم يجب أن يقتل فليقتل » الا أنه اعترضتهم عقبة وقفت في سبيل تنفيذ هذا الحكم تنبه لها الوزراء فيما بعد وهي عدم وجود آلة جيلوتين للاعدام أو جلاد للمملكة وبعد المداولة فيما بينهم قرروا أن يكتبوا للجمهورية الفرنسية يسألونها عما يكافه جلب آلة جيلوتين وجلاد



من فرنسا الى موناكو . وبعد اسبوع ورد اليهم الرد بأن ارسال الآلة وما مورها يكلف ستة عشر ألف فرنك فلما عرض الجواب على الملك دهش منه وقال مستغربا ما هذا ؟ ان الشقى لا يساوي هذا المبلغ أفدفع ستة عشر ألف فرنك دفعة واحدة ؟ ألا توجد طريقة أرخص من هذه ؟ ان المبلغ المطلوب لو وزعناه على سكان المملكة لأصاب الواحد منهم أكثر من فرنكين . وذلك لا يرضى الشعب وسيحدث بلا شك هياج في الافكار والخواطر . ثم دعي مجلس الوزراء الاجتماع والنظر في المسألة من جديد فقرروا أن يرسلوا كتابا الى مملكة إيطاليا لما بينه وبين ملك البلاد من أو اصر الاخوية في الملكية وخلق بأن يلي الطلب بثمان أقل وأرخص فأرسل الكتاب وبعد زمن وجيز وردت الاجابة فاذا فيها أن إيطاليا ترسل الآلة وما مورها سرور ونظير تقفات تقدر بمبلغ اثني عشر ألف فرنك وهو مبلغ أقل من الاول الا انه لا يزال باهظا بالنسبة لتلك المملكة الصغيرة ومن أجل ذلك دعي الوزراء للالتسام مرة أخرى فاجتمعوا وتداولوا في ايجاد طريقة أرخص من هذه فقال بعضهم ألا يمكن لأحد من الجنود أن يقوم بذلك العمل ولو بطريقة خشنة وسرعان ما ارتاح الحاضرون لهذه الفكرة وعزموا على دعوة قائد الجند اليهم لأخذ رأيه في الموضوع ، فلما حضر

الى المجلس قالوا له :

- ألا يمكن أن نجد لنا جنديا يستطيع أن يقطع رأس انسان ؟
فان الجنود لا يبالون بقتل البشر في الحروب وهم يدربون في الحقيقة
على القتل ويتمرنون عليه ،

فاستمهلهم القائد بينما يعرض الامر على جنوده ليري من
فيهم يقدر على القيام بتلك المهمة ، وعند ما ذهب اليهم وفتحهم في
الامر لم يقبل أحد منهم أن يؤدي تلك المهمة البشعة ، وقالوا جميعا
اننا لانستطيع أن نؤدي ما تدعونا اليه وليس ذلك مما تعلمناه

فعاد الوزراء الى التفكير في الأمر واجتمعوا مرات متعددة
وقرروا أخيراً استبدال حكم الاعدام بالسجن المؤبد ، ظنا منهم ان
هذا أحسن حل للمشكلة وأرخص كلفة ، وأقل نفقة ، فضلا عما
فيه من مظهر الرحمة والشفقة . ولذلك لم يتردد الملك في قبول القرار
والتصديق عليه ، الا انه عقب صدور هذا القرار الثاني اعترضتهم
مشكلة جديدة ، ذلك انه لم يكن في المملكة سجن يصلح لحبس
المجرمين مدى الحياة ، اللهم الا سجن واحد بسيط كانوا يجسسون
فيه أحيانا بعض الناس حبسا مؤقتا ، وبعد اتمام النظر طويلا في
الامر توفقوا لايجاد محل مناسب وضعوا فيه المجرم الشاب وعينوا
له حارسا ليحرسه وليحضر له الطعام من مطبخ القصر .

ومر على ذلك عام كامل وجاء اليوم الذي يعرض فيه حساب نفقات القصر على الملك ، فلما عرض عليه رأى في قائمة الحساب نفقات جديدة تحت عنوان « نفقات المحافظة على السجين واطعامه » تربوا على ستمائة فرنك وأنكى مافى المسألة أن السجين شاب يتمتع بصحة جيدة تدل على انه سيعيش على الاقل خمسين عاما أخرى . ولذلك دعا الملك وزراءه أزاء هذا الأمر الخطير وقال لهم : يجب أن تجدوا طريقة أرخص من هذه لتعامل بها هذا الخبيث . ان في الطريقة الحاضرة غبنا كبيرا واسرافا فاحشا ، فابحثوا لنا عن طريقة تنقذنا منه فاجتمع الوزراء بصفة غير عادية ونظروا في الامر وفكروا فيه . فسنحت لأحدهم فكرة عرضها على زملائه بقوله انى أرى أيها السادة أن نعزل الحارس ونستغنى عنه

فاعترضه بعض الوزراء قائلا ولسكن السجين سيفر حينذاك فاجابه صاحبه ليفر الى حيث يريد فنستريح منه . وتم الاتفاق على هذا الرأى وأقره الملك .

وفي اليوم التالى أمروا الحارس بأن يتنحى عن السجين وانتظروا ليروا ماذا يحدث ، الا ان السجين لم يحقق أملهم فانه بقى فى سجنه حتى وقت الغذاء ، فلما تأخر مجيء الطعام عن ميعاده فتح باب السجن لينظر الحارس فلم يجده — فذهب بنفسه الى مطبخ

الملك وأخذ من هناك طعامه ثم عاد الى سجنه ، وفي الايام التالية
عمل ذلك أيضا واستمر على هذه الطريقة دون أن تبدو عليه أماراة تدل
على عزمه على الفرار ، فاسقط في يد الوزراء هذه المرة أيضا وفكروا
في كيفية الخلاص من هذه الحال . ففكروا فيما بينهم واستقر رأيهم
بان يقولوا له يجب عليك بان تغادر السجن الى حيث تشاء . لاننا
لا نريد بان تبقى فيه فارسل اليه وزير الحقانية وأحضره بين يديه
وقال له : لم لا تهرب يا هذا ، انه لا حارس يحرسك الآن فتستطيع
أن تذهب الى حيث تشاء من غير أن يؤخذك الملك . فأجاب الرجل :
— أعلم يقينا ان الملك لا يهتم بالامر ان أنا فررت ولبيكني
لا أجد مكانا أهرب اليه ولا أعتقد اني أستطيع أن أعمل عملا .
لانكم شوهتم سميتي . وأفسدتم أخلاقي بحكمكم الذي أصدرتموه ضدي
وجعلتم الناس يولوني ظهورهم حينما حملت . وفوق هذا كله فقد
عطلت أشغالي وعاملتموني معاملة سيئة . لقد حكتم على بالموت في
بادئ الامر وكان يجب أن تعدموني . ولكنكم لم تفعلوا فلم أتدمر .
ثم حكتم علي بعد ذلك بالحبس المؤبد وعيذتم لي حارسا يحضر لي
طعامي فلم أتأقف . وبعد زمن طردتموه وأرغمتموني على أن أنقل
طعامي بنفسى فما شكوت من ذلك أيضا . وهاأتم اليوم تريدون مني
أن أهرب الامر الذي لأرضاه ولا أقبل به . فاعملوا بي ما شئتم فاني

لن أهرب أبداً؛

انعقد المجلس لينظر في الطريقة التي يجب اتباعها بعد ذلك
فأرى ان خير الطرق أن يعين له راتب سنوي بشرط أن يرحل
من أرض المملكة ولا يسكنها. وعرضوا الأمر على الملك قائلين له
انه لا يوجد حل آخر لهذه المشكلة اذا أردنا أن نتخلص منه .
فوافق جلالاته على اعطاء الرجل ستمائة فرنك في كل سنة بشرط
الأيسكن في أراضي الملك

وعلى هذه الصورة انتهى الأمر واستلم الرجل ثلث مرتبه
السنوي مقدما وغادر تلك البلاد الى بقعة تبعد عن الحدود نحو
ربع ساعة في القطار حيث ابتاع له قطعة من الارض جعلها بستانا
فهو يعيش الآن برخاء ويذهب في أوقات معينة ليقبض راتبه
وبعد أن يتناوله يمر بيت القمار فيلعب بفرنكين او ثلاثة فاما ان
يخسرها او يربح مثلها . ثم يعود الى مسكنه حيث يعيش بسلام
واطمئنان

وقد كان من حسن حظه انه لم يرتكب جريمة في بلاد لايبالي
اهلها مما يكافه اعدام الرجال او بما يلزم لسجنهم المؤبد من النفقات.

١٠

الاسطورة الهندية

العمل والمرض والموت

من الاساطير المتداولة بين هنود أمريكا الجنوبية أن الله خلق الناس في بدء الامر ورفع عنهم كلفة العمل فما كانوا يشعرون بضرورة المسكن والملبس والطعام وظلوا على ذلك زمنا طويلا حتى صاروا مائة انسان وكانوا الى ذلك الوقت لم يشعروا بألم للمرض وأوجاع العلل .

ثم أراد الله أن يرى كيف يعيش خلقه فلما وقف على حالهم ألفاهم يقاتل بعضهم بعضا ووجد كلا منهم لا يعيا بغيره وانما يهتم بأمر نفسه مما يحول بينهم وبين الحياة السعيدة والعيش الرغد الذي ينتظره لهم فقال : « انما هذا البلاء جاءهم من طريق التفرق والانقسام ومن اهتمام الواحد منهم بامور نفسه فحسب » ولذلك غير مجرى حياتهم وقد كانت من غير عمل بان سلط عليهم البرد والجوع ليجبرهم على نحت المغاور والكهوف يلتجئون اليها اتقاء البرد وليضطرهم الى السعى في جمع الفواكه والثمار والحبوب دفعا لفائلة الجوع اذ

ان العمل يوجد فيما بينهم رابطة الاتحاد والتالف فقال :
ولا يستطيع الرجل بمفرده أن يصنع كل ما يلزمه من الآلات
والادوات ولا يمكنه أن ينقل ما يحتاج اليه من الخشب ولا أن يبني
وحده المساكن التي تقيه العواصف والزوابع ولا أن يفتح الارض
فيجمع محصولها ثم ينزل وينسج ويصنع الملابس والثياب لان كل
هذه الامور تستدعي المعاونة وبذلك يتم لبني الانسان الرابطة
والائتلاف والاتحاد دون أن يشعروا بالدافع فيتم سرورهم وتكمل
سعادتهم «

ثم مرت أيام وأزمان ورغب الرب في أن يزور خلقه ليرى
هل هم سعداء في حياتهم الجديدة أم أشقياء تمساء ؟ ولما أتاها
وجدهم في حالة أسوأ من الاولى

لقد فعلوا ما قدره لهم واشتركووا في العمل ولكنه كان
اشتراكا يمتوره النقص ولا يصل بهم الى الغاية المطلوبة . فانهم
كانوا قد انقسموا الى جماعات تفرقها الالهواء والغايات تحاول أن
تستأثر بالعمل والى عرقلة مساعي الاحزاب الاخرى . فصاروا
يتنافسون ويتزاحمون ويتباغضون بكل ما فيهم من بغض وقوة
فساءت حالتهم واشتد كربهم

وعمد الرب بعد ذلك الى اصلاحهم من طريق آخر فقدر

عليهم الموت وألا يعلموا وقت هذا القضاء وأشعرهم بذلك قائلاً :
« إذا ما عرفوا ان الموت لهم بالمرصاد يحافظون على أوقاتهم
ويضنون بأعمارهم فلا يصرفونها الا في الاعمال الصالحة
» غير ان ذلك لم يثمر النتيجة المطلوبة بل رأى الرب عند
اطلاعه على حالهم في حياتهم الجديدة انه لم يحدث تغيير في شأنهم
ولا تبديل بل بقي سوء الحال ملازماً لهم حيث اغتتم الاقوياء فرصة
خضوع الانسان لقانون الموت في أى وقت وأى حال فأخضعوا
لارادتهم الضعفاء بعد أن قتلوا من قاومهم وتوعدوا المتمردين الباقين
بالموت والملاك

فأصبح الاقوياء بهذه الوسيلة يجنون ثمرة كد الضعفاء
ونسج أعقابهم على هذا المنوال فورتوا الاستئثار بجني الضعيف
من أجدادهم يمشون على اكتاف الضعفاء من غير تعب ولا نصب.
ولكن الاقوياء ظلوا يشكون البطالة ويتململون من حياة
الكسل بينما الضعفاء يتألمون ويتدمرون من اشتغالهم بأكثر مما
يطيقون ويتضجرون من زيادة التعب وقلة الراحة واتسعت حلقة
الخلاف أثناء ذلك بين الفريقين واشتدت أسباب العداوة والبغضاء
وهكذا صارت حياة الناس بعيدة عن غاية السعادة .

ورأى الرب كل ذلك فعمد الى اصلاح حالهم ومعالجة شأنهم



بوسيلة أخرى فسلط عليهم ضروب الامراض وأنواع العلل ظنا
منه أنه متى تعرض الناس للعلل والامراض على السواء تتحرك
الرحمة في قلوب الاصحاء على المرضى فيشفقون عليهم ويواسونهم
ويعمدون اليهم يد المعونة ليقابلهم المرضى بالمثل اذا ما تعرضوا
لسهام المرض

وبعد زمن طويل عاد الرب الى اختبار حالتهم الجديدة
فوجدهم أسوأ من ذي قبل وأشد كرابا مما كانوا عليه في سالف
العهد . لان الامراض التي سلطها عليهم لتكون واسطة لتأليف
القلوب كانت سببا في التفرقة والتباعد اذ بقي الاقوياء يستخدمون
الضعفاء وقت المرض ولا يهتمون بشأنهم عند ما تنتابهم العلل .
وهكذا كان اولئك الضعفاء المساكين يعملون لمنفعة غيرهم طول
حياتهم ويخدمون ساداتهم في حالتى الصحة والمرض بينما هم لا
يجدون فرصة لمداواة امراضهم ولا يلقون عطايا وعناية من أحد .
لقد بنيت لهم بيوت خاصة يقيمون فيها اوقات المرض فيحيوا أو
يموتوا لئلا يكره منظرهم . وهم يعانون أوجاع المرض . صفوا أولئك
الاقوياء وسرورهم . فيتركون في تلك المساكن الخاصة لعناية أناس
مأجورين يمدونهم بلا دافع عطف أو حنان وفوق هذا كله
حمل خوف العدوى الكثيرين على اجتناب الاختلاط بالمريض

والا بتماد عن كل من يخالطه .

ورأى الرب هذه الحالة فقال :

« اذا كانت هذه الوسيلة لم تكف لافهام الناس أين تكون

السعادة فليكن الألم في المستقبل مرشداً لهم ،

ثم ترك أمور الناس لهم يتصرف فيها كيف شاؤا

هذه هي أسطورة هنود أمريكا وقد مرت على البشر عصور

كثيرة قبل أن يدركوا كيف يكونون سعداء . وفي الايام الاخيرة

بدأ قليلون يشعرون بأن العمل ليس معناه استعباد الناس وانما هو

وظيفة عامة مشتركة يؤا ف بين الناس ويجمع شملهم وصاروا

يفهمون أن الشيء الوحيد الذي نستطيع به أن نقابل تهديد الموت

الواقف لنا بالمرصاد هو صرف أعمارنا في الاتحاد والالفة والمحبة

والسلام وان العلل والامراض أبعد ما تكون عن تفريق الناس

وتشتيت شملهم بل هي بالعكس الوسيلة التي تدفعهم الى التجا ب

والتآلف

صحيفة

المقدمة	
١	ترجمة حياة المؤلف
١٤	قصيدة شوقى بك فى رثائه
١٩	الحكاية الاولى - بم يعيش الناس
٣٥	الحكاية الثانية - مشرب سورات
٤٨	» الثالثة - كم هو نصيب الانسان من الارض
٧٥	» الرابعة - ابن العراب
٩٧	» الخامسة مكيدة الشيطان
١٥٤	» السادسة - ثلاثة أسئلة
١٩١	» السابعة الناس
١٢٥	» الثامنة - قمحة فى حجم بيض الدجاج
١٢٥	» التاسعة - بمن باهظ
١٣٥	» العاشرة الاسطورة الهندية



To: www.al-mostafa.com